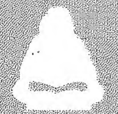
المكتبة الثقافية

طه حسين

في الضحى من شبابه
١٩٠٨ - ١٩١٣

عبد العليم القباني



الهيئة المصرية العامة للكتاب



المكتبة الثقافية

٣٢٧

طه حسين
في الضحى من شبابه
١٩٠٨ - ١٩١٣

عبد العليم القباني



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٦





طه حسين



بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدى القارئ

في الثامن والعشرين من أكتـــوبر سنة ١٩٧٣ احتسب الأدب العربى عميده ، وطوى الموت فيه شخصية فذة ، ربما كانت أعمق الشخصيات العربية المثقفة أثرا فى جيلنا هذا ، وأحسب أن أثرها سيظل باقيا لعـدة أجيـال .

تلك هى شخصية أستاذنا الدكتور « طه حسين »

ذلك الرجل الذى خرج من أعماق القرية المصريه ليعلن للعالم كله ، عن مدى ما فى أرضنا من خصوبة ، يمكن أن تستجيب لنداء المعرفة بحيث تقتحم السدود، وتحطم العوائق فى سبيل الوصول الى ثمارها الطيبة •

فلا يقعد بها النقص الجسدى ، ولا العجز المادى، ولا يقف أمامها جدار من جدران الجهل ، ولا سور من أسوار الاستبداد عن بلوغ هذا الهدف النبيل •

ذلك هو « طه حسين » الذى سأحاول هنا ، أن أعرض الى جانب فترة الضحى من شبابه جانبا آخر من جوانب ابداعه الأدبى ، ربما كان أكثرها خفاء ، أو لعل « طه حسين » نفسه ، هو الذى ساعد على هذا الخفاء ، وأعنى به الجانب الشعرى فى انتاجه ، ولا أقصد هنا شاعرية الأسلوب فى بعض قصصه أو بحوثه كما قد يتبادر الى الذهن ، فان لذلك مجالا آخر ربما يتناوله غيرى ، وانما أقصد الحديث عن شعره الموزون المقفى الذى يقع فى دائرة ما وضع « الخليل بن أحمد » من مسميات لهذا الفن •

وهو فن مشى فيه « طه حسين » شوطا لا بأس به ، استغرق الضحى من شبابه سنة ١٩٠٨ ــ ١٩١٣ ثم شغلته الأحداث عن ممارسته ، عندما احتواه الصراع الكبير ، فى مجابهة الثائرين ضده ، والناقمين عليه وهى معركة استنفدت من جهده الكثير ، حتى يمكن أن يقال، ان نظم الشعر أصبح فيها ترفا لا مكان له ٠

ولقد كانت نواة هذا البحث مقالة كتبتها بعنوان « طه حسين ٠٠ شاعرا » ونشرتها بمجلة « الهلال » المصرية عدد ديسمبر ١٩٧٣ ثم كان أن لقيت مقالتى المتواضعة تلك ، بعض التقدير من الاخوة الذين يحسنون الظن بى ، وكان من رأيهم أن أعيد كتابتها بتوسع يمكن أن يجعل منها محاضرة عامة ٠٠

وأغرتنى ثقتهم بى أن أكون عند حسن ظنهم ، فرجعت الى المصادر التى يمكن أن أستعين بها فى سبيل تحقيق هذه الرغبة ، ومنها صحف ومجلات ذلك العهد٠

واذا بى أمام كنز يغرينى بألوانه المتعددة أن أجعل من هذه المحاضرات المقترحة كتابا ، لا أهتم فيه بشعر « طه حسين » فحسب ، وانما أحاول أن أوضح الأحداث

التى أحاطت به ، حتى يمكن أن نعايش هذا الشعر ، وأن نحس معانيه ، بنفس احساس معاصريه ، وأن ننتقى من طرائف صاحبه ، وغرائب آرائه ، فى هذه الفترة ، ما نرى فيه متعة للقارىء المعاصر واسترجاعا لصور شائقة من حياة كاتبنا الكبير بعد أن بعد العهد بها حتى ليوشك أن ينكرها الكثيرون منا لغرابتها ، لولا أن التاريخ الذى حفظها ، قد حفظ لنا فى نفس الوقت أسانيدها ، ومن ثم كان هذا الكتاب الذى أقدمه اليك ــ أيها القارىء الكريم ــ لعلك تجد فيه من المتعة مثل الذى وجدت ..

فهل ترانى وفقت ؟ ..

أرجو !

وعلى الله قصد السبيل ،

عبد العليم القبانى

١

كان صبيا لم يتجاوز الثالثة عشرة من عمره ، يوم أن تفجر الشعر فى أعماقه •• فجره حزنه على مـوت أخيـه ••

كان ذلك فى أحد أيام أغسطس من سنة ١٩٠٢ ، حيث كانت « الكوليرا » قد انطلقت تحصد أرواح الناس فى الصعيد ••

وكان أن أودت بخمسين ألف مواطن ، ذهبـوا جميعا ضحية الجهل والسذاجة ••

وتبدأ القصة بعودة أحد حجاج قرية « موشا » من أعمال « أسيوط » من البلاد المقدسة ، وكان قد أحضر معه زجاجة من ماء « زمزم » وعندما توافد عليه طلاب البركة ، وأراد ألا يحرم منهم أحدا ، ألقى بما فى الزجاجة فى أحد آبار القرية ، وكانت الزجاجة قد تلوثت بمكروب « الكوليرا » ومن ثم انطلق الداء القاتل من هذه البئر الى أنحاء القطر وبخاصة فى الصعيد الأوسط (١)

وكان الناس يومها كما وصفهم أحد شعراء ذلك العصر بقوله :

اذا لاقوا الأطباء استعاذوا
وخاضوا فى الظنون السيئات
وأبدوا للعقاقير • • احتقارا
وظنوها سموما مهلكات

---

(١) نشرت صحف ومجلات ذلك العهد هذه القصة . ويمكن الرجوع الى عدد أغسطس سنة ١٩٠٢ من المقتطف ص ٧٩٦ و٨٢٠ وفيه هذه القصة ومعها ما يفيد أن الكوليرا بدأت فى منتصف يوليو سنة ١٩٠٢ وقد توسعت المقتطف فى ذكر أسباب الحادث توسعا يتفق مع نزعتها اللادينية الاحتلالية ؛ مع أن تقديس ماء زمزم فى حد ذاته ليس من التدين فى شىء .

وقالوا فى منــازلنا دعــونا
فان الموت فى المســتشفيات (١)

« ••• وكانت لنساء القرى ومدن الأقاليم (فى ذلك العهد) (٢) فلسفة آثمة ، وعلم ليس أقل منها اثماء يشكو الطفل ، وقلما تعنى به أمه ، فهى تزدرى الطبيب أو تجهله ، وهى تعتمد على هذا العلم الآثم ، علم النساء وأشباه النساء •• » (٣)

ومن ثم وجدت « العاصفة الصفراء » (٤) طريقها الى أرواح الناس سهلا ميسورا •

وأثارت الفاجعة أمير الشعراء « أحمد شوقى » فنظم قصيدة طويلة وجهها الى الخديو « عباس حلمى الثانى » أشار فيها الى جانب من هذه المأساة فقال ••

---

(١) من قصيدة لأحمد الكاشف فى هذا الموضوع نشرت فى الجزء الاول من كتاب الاتجاهات الوطنية فى الأدب الحديث تأليف الدكتـــور محمد حسين •

(٢) ما بين المعقوفتين (••) زيادة ليست فى الأصل •

(٣) الأيام لطه حسين جـ ١ فصلة ١٨ •

(٤) الهواء الأصفر : اسم كان شائعا للكوليرا يومئذ •

لهفى على مهج غوال غالها
خافى الدبيب محجب الأظفار

خمسون ألفا فى المدائن صادهم
شرك الردى فى ليلة ونهار

ذهبوا فليت ذهابهم لعظيمة
مرموقة فى العصر ، أو لفخار

فالموت تحت ظلال «موشا» رائع
كالموت فى ظل القنا الخطار (١)

---

(١) الشوقيات الجزء الأول .

٢

وامتدت أذرع الوباء الرهيب ، لتحتضن قـرية « الكيلو » التابعة لمركز « مغاغة » من أعمال « المنيا » بالصعيد الأوسط من مصر ..

وتسللت الى داخل الدار التى بها الصبى الضرير « طه حسين » من حيث لا يشعر أحـد كيف تسللت ..

وساعتها .. أحس الصبى بالدار تكاد من ذعرها تمور ، واذا بالضجة من حوله ترتفع ، وتغلى ، وتثور ..

ثم ما لبثت هذه الأذرع الرهيبة أن امتدت فانتزعت

أخاه الأثير لديه . من دون أفراد الأسرة ، لتنطلق به الى حيث لا يعود ؛ ولم يملك صراخ الأم الولهى ، ولا ذهول الأب المفجوع له ردا •

وأعجزت العلة الصبى أن يرى الموكب الحزين القاتم وهو يمشى خلف الفقيد المحمول على أعناق الذين بادلهم بالأمس الفرحة والأسى ، وان كان قد أحس بما يصنعون كأعمق ما يكون الاحساس « •• ومن ذلك اليوم ، عرف الصبى أرق الليل ، فكم أنفق سواد الليل، كاملا ، يفكر فى أخيه ، أو يقرأ سورة الاخلاص آلاف المرات (١) ثم يهب ذلك كله لأخيه ،

أو ينظم شعرا ، على نحو هذا الشعر الذى كان يقرؤه فى كتب القصص يذكر فيه حزنه وألمه لفقد أخيه، معنيا بألا يفرغ من قصيدة حتى يصلى فى آخرها على النبى ، واهبا ثواب هذه الصلاة لأخيه » (٢) ونحن هنا لا تعنينا القيمة الفنية لهذا الشعر المبكر ، فانه يكفى أن يكون متنفسا لصاحبه ، فيكون قد أدى شطرا من

(١) على ما فى ذلك من مبالغة •
(٢) الأيام جـ ١ فصلة ١٨ •

وظيفته الأدبية ، وأن يكون على جانب من شكل فنى متعارف عليـــه ، فيكون قد حقق شطرا آخــر من قـــواعده ...

وأغلب الظن أن الصبى قد حاول ذلك ، فجاء به على نسق الشعر الذى كان يسمعه من «حسن الشاعر»(١) كل مساء ، والذى كان يتغنى به الصبى نفسه كل صباح، حتى تستيقظ اخواته على غنائه به (٢) فقد كان يخرج منذ كان طفلا صغيرا بعد العشاء ليستمع اليه خارج سياج الدار ، ويظل يستمع اليه « .. وفى نفسه حسرة لاذعة، لأنه كان يقدر أنه سيقطع عليه استماعه لنشيد الشـــاعر حين تدعوه اخته الى الدخول فيأبى ، فتخرج اليه فتشده من ثوبه ، فيمتنع عليهـــا ، فتحمله بين ذراعيها كأنه « الثمامة » (٣) وتعدو به الى حيث تنيمه ، وتذره ، وان

---

(١) ورد اسم هذا الشاعر فى الفصلة ٢ من ج ١ من الأيام .

(٢) الأيام ج ١ فصلة ١ .

(٣) الثمام نبت ضعيف يشبه الخوص يضرب به المثل لما هو هين المتناول .

فى نفسه لحسرات وانه ليمد سمعه مدا ، يكاد يخترق به الحائط ، لعله يستطيع أن يصله بهذه النغمات الحلوة التى يرددها الشــاعر فى الهـــواء الطلق ، تحت السماء .. » (١)

(١) الأيام ج ١ فصلة ١ .

٣

فكيف كان هذا الشعر الذى افتتن به الصبى فى بداية تطلعاته الأدبية ؟

لقد كان شعرا ينشده « شاعر الربابة » على ايقاع رباب يعزف عليها بنفسه فى الغالب ، فيسـاير بايقاعها أحداث الملحمة التى يروى فصولها صعودا وهبوطا ، واسراعا وتريثا مثلما كان يفعـل « هوميروس » فى « الالياذة والأوديسـة » وهو يتحـدث عن صراع « أوديسيوس » والآلهة والمعارك التى قام بها أبطـال

« طرواده » ويصف لنا الأعمال البطولية التى قام بها شجعان هاتين الملحمتين •

لكن شعراءنا كانوا عربا ، يتحدثون الينا بلغتنا ، وعن أبطال منا وان باعد الزمن بيننا وبينهم ، فمنهم «أبو زيد الهلالى سلامة» و «دياب بن غانم» و «الزناتى خليفة » وغيرهم كثير ممن تحفل بهم سيرهم المتداولة ، سواء عند المنشدين المحترفين من الذين نطلق عليهم « شعراء الرباب » أو فى كتب مقسمة الى أجزاء صغيرة تباع فى الأسواق ، وكان هؤلاء المحترفون ، يروون أشعار أبطالهم ، ويقصون علينا ما تضم ملاحمهم من أخبار عن المعارك التى تدور بينهم ، من أجل تمجيد عادات وتقاليد قبلية خاصة ، ومنها ما هو من أجل الدفاع عن الوطن أو القيم العامة ، وتحفل هذه الملاحم بألوان من الحكمة والأقوال المتوارثة ، والأشعار البسيطة السهلة التى تنوهج بعض معانيها أحيانا بالنفس الشعرى الأصيل ، وكذلك تضم كثيرا من الحيل الساذجة ، والبطولات المبالغ فيها الى حد لا يتصوره العقل المتحضر فى بعض الحالات ، وأبرز القبائل التى قامت بهذه الملاحم

هى « الهلالية » و « الزناتية » وبعض القبائل الأخرى، وقد تمتد ميادين القتال فى هذه الملاحم الى بعض البلاد التى لا يستسيغ الواقع الوصول اليها ، كأن تصل هذه القبائل الى الصين مثلا ، وان تتكلم الصـــين باللغة العـربية ..

على أننا نعرف لهذه القبائل ولآدابها تاريخا قديما أشار اليه « ابن خلدون » فى مقدمته ، وأورد عددا من قصائد شعرائها المصوغة بلهجات عربية قريبة جـدا الى الفصحى ، اذا تجاوزنا قليلا عن قواعد النحو والصرف المعروفة، واستبحنا بعض الخلافاتاللسانية المميزة لبعض القبائل العربية التى لم تخضع تماما للغة الرسمية ..

كما تحدث عنهم الأستاذ « أحمد رشدى صالح » فيما كتب عن « الفنون الشعبية » والدكتور « عبـد الحميـد يونس » فيما كتب عن « الهلالية » والأسـتاذ « محمد فهمى عبد اللطيف » فى كتاب له عن هـــذا الموضوع ، وكذلك فيما كتب الأستاذ فاروق خورشيد حول هذا الموضوع أيضا ..

ونضيف الى هذا أن هناك بعض الملاحم التى تتصل في موضوعها بالهلالية وخصومهم ومعاركهم ، قام بنظمها بعض زعماء البدو من المصريين للتأسى وللتسلية ، عندما حدد الانجليز اقامتهم في منازلهم بوادى المنيا عقب القضاء على الثورة العرابية سنة ١٨٨٢

٤

وحتى تكون لدينا فكرة عن طريقة بناء هذا الشعر، نحب أن نشير الى أن أول ما يلحظ الباحث عليها ، ان الشاعر يبدأ قصيدته عادة بالصلاة على النبى من مثل :

أول ما نبدى القول نصلى على النبى
نبى الهـــــدى بين طـريق المـذاهب

ثم يستمر الشاعر فى قصيدته حتى يختتمها بالصلاة على النبى فيقول :

وأفضـــل ما قلنـــاه نصـــلى على النبى
نبى عـــربى شـــدت اليـــه النجـــائب

وقد حدثنا أستاذنا « طه حسين » فى « الأيام » أنه فعل ذلك فى قصائده التى رثا بها أخاه (١) ومعنى ذلك أنه اتبع احدى القواعد الموضوعة لهـــذا اللون من الشـــعر ..

ولكى تكون الصورة أقرب الى الكمال ، نقدم هذه المقطوعة من قصيدة طويلة تتضمن كثيرا من القيم الموروثة والتى يقيم لها البدو والصعائدة والفلاحون فى مصر وزنا كبيرا .

تقـــول المقطوعة :

أول ما نبـــدى القول نصلى على النبى
نبى عـــــربى ســـيد ولد عـــــدنان

يقول الفتى الشـــاعر زهـــير اليمـــانى
اســـمع كـــلامى أيا ولد ســـــرحان

---

(١) الأيام جـ ١ فصلة ١٨ .

بلاد النـــدى ما مثلهـــا يا بو على
تشـــبه لجنـــه من جنـــان رضـــوان

فيها الملك عطـــاب حامى رجـــالها
اذا مـــا ركب يتـــزلزل الميـــدان

تبدى لـــه حســـن الهـــلالى وقال له
هيجتنى أيـــا شـــاعر العـــربان

يا هل ترى خلف ولـــد يذكـــر به
ولا قليـــل الـــذكر طـــول زمـــان

والقصيدة بعد ذلك طويلة ، تعـــدد ألوانا من الأمجاد القبلية والمفاخرات التقليدية ، غير أننا نشـــير اشارة عابرة لما جاء فى هذا المثال من قيمة يعتز بهـــا المجتمع القبلى ، فالشاعر هنا يصف بلاده بجنة رضوان وبأن الميـــدان يزلزل اذا ما نزل حامى القبيلة لأرض المعركة ، ولكن خصم هذا الحامى يأتيه مفاخرا من ناحية ضعفه فيسأله هل له ولد أم لا ؟ أى أن ذكره خالد أم سينتهى بمجرد موته لكونه عقيما ؟ وتنتهى هذه القصيدة كغيرها بالصلاة على النبى سيد ولد عدنان وغنى عـــن

الذكر أن ناظمى هذا الشعر لم يلتزموا تماما بقواعد العروض الخليلية ، كما أن الأحرف كانت تطو وتقصر ، طبقا لطريقة المنشد فى الأداء ، ويرتكز المنشد على حدة الايقاع فى اخفاء الخلل العروضى الذى قد ينجم من الوزن أو من الأداء •

كما نحب أن نقول ان هذا البحر الذى قدمنا منه المقطوعة السالفة ، ليس بالبحر العروضى الوحيد الذى نظم عليه شعراء الربابة ، بل كانت لهم أبحر أخرى تتفق والسياق الملحمى الذى وضعت من أجله المنظومة ، وانه يطول بنا المقام لو استشهدنا بنماذج منها ولذلك نكتفى بهذه الاشارة ••

ذلك هو الشعر الذى استمع اليه الصبى « طه حسين » أول ما استمع وتأثر به أول ما تأثر ، وحاول أن ينسج على منواله أول ما حاول وهو شعر له سمات معينة، أدركنا بعض مقوماتها فيما سبق من نموذج ويكفى الصبى أنه التزم بها أو ببعضها كما رأينا ، أو حتى بهيكلها العام ليصبح ما نظمه فى هذه المرحلة ـ مهما كانت قيمته الأدبية ـ شيئا يمكن أن نسميه شعرا ••

لقد أعطانا « طه حسين » فى هذه الاشارات التى
ـردناها من « أيامه » ما يمكن أن نستشف منه كيف
ـانت بدايات شعره ، وأحسب ـ بعد ذلك ـ أننا لن
خسر كثيرا اذا افتقدنا نماذج من هذا الشعر ، ثم لـم
جـدها ..

٥

كذلك كان الحب منبعا آخر من منابع شــاعريته المبكرة حتى وان كان حبا ساذجا وغريرا ..

أما تفاصيل هــذا الحب فيرويها لنا استاذنا فى الجزء الأول من أيامه (١)

ذلك انه كان يتردد على دار أحد المفتشين الــذين وفدوا الى القرية للعمل فى بعض مصالحها ، وكان هذا المفتش مجيدا لبعض علوم القرآن الكريم ، واســتغل

(١) الأيام جـ ١ فصلة ١٧ .

أهل « طه حسين » الفرصة للاستعانة بهذا المفتش فى سبيل اجادة صبيهم لبعض هذه العلوم تمهيدا لنقله الى الأزهر الشريف •

وكان هذا المفتش قد جاوز الأربعين فى حين أن زوجته لم تكن جاوزت الخامسة عشرة بعد ••

وأن مودة ساذجة حلوة فى نفسه : لذيذة الموقع فى قلبه ، قد اتصلت بينه وبينها ، وان هذا المفتش كان يجهل هذه الصلة جهلا تاما (١)

ثم يتابع عميد الأدب العربى روايته لهذه القصة فيقول :

« ••• وأخذ الصبى يذهب الى دار المفتش قبل الميعاد ، ليظفر بساعة أو بعض ساعة يتحدث فيها الى هذه الفتاة ، وأخذت الفتاة تنتظره ، حتى اذا أقبل أخذته الى غرفتها فجلست وأجلسته وتحدثا ، وما هى الا أن استحال الحديث الى لعب ، الى لعب ، كلعب الصبيان،

---

(١) الأيام جـ ١ فصلة ١٧ •

لا أكثر ولا أقل ، ولكنه كان لعبا لذيذا •• » (١) فما هو هذا اللعب اللذيذ ؟

وما هذا الذى جعله يستدرك فيعيد كلمة « الى لعب » مرة أخرى ، بلا فاصل بين الكلمتين ؟ ثم يصف هذا اللعب بأنه كلعب الصبيان ، ثم يحاول أن ينفى ماقد يثيره هذا الوصف من شك فى ذهن المستمع فيقـــول « لا أكثر ولا أقل » ثم يؤكد بعد ذلك « انه كان لعبا لذيذا » •

هذه أسئلة يمكن أن تكون بريئة من رجل يبحث عن الحقيقة التى لا يعرفها تماما ، الا أستاذنا « طـه حسين »

كما أن هناك أجوبة يمكن أن يقتنع بها أى انسان حسن الظن ، يعرف أن هذا الأسلوب طبيعى عند المكفوف الذى يملى كلماته فهو يكررها ليتأكد من رسوخها فى واعية المستمع اليـه ••

لكن •• ماذا يكون جوابنا ، لو كان السائل رجلا

---

(١) الأيام جـ ١ فصلة ١٧ •

يقوم منهجه العلمى على الشك ، كما صنع أستاذنا فيما بعد ؟

ان أصداء استمعنا اليها فى احدى قصائده المبكرة أوحت لنا بما يكاد يجعل من هذا الشك الذى راود أفكارنا ، يقينا ، وتركنا بحيث نعتقد أن وراء هذا اللعب شيئا ما ، أبعد من اللعب ، وأقول أبعد شيئا ما ، ثم لا أتابع رغبتى فى الحديث ، حتى لا أصبح أنا الآخر موضوع اتهام ..

فما هى هذه الأصداء ؟

ربما وجدناها فى هذه القصيدة التى نشرها « طه حسين » وهو فى العشرين من عمره (١) والتى عنى فى مطلعها بنوع من البديع يسمونه الالتفات ، ذلك حيث يقول :

ضنيت : لا من هوى الغوانى
واشتقت : لا للمها الحسان

(١) نشرت هذه القصيدة بمجلة مصر الفتاة ١٩٠٩/١١/٢٧ . وقد ولد طه حسين سنة ١٨٨٩ .

وشــــفنى : لا صـــــدود رئم
اذا ثنى عطفـــــه ســــــبانى
واقتـــادنى : لا هــوى فـــلان
فقـــــد تولى هـــوى فـــلان

ثم يتحدث عن غرامه الطفولى فيقول :

لقد بلوت الغـــرام غــرا فكم بآلامــه ابتـــلانى
تحكم الغيـــد فى دهـــرا ثم انثنى عنهمـــو عنـــانى
لا أكـــذب الله ان عـــاما مضى حثيثا بـــلا توانى
اذا تذكرته اســــتهلت دموع عينى كالجمـــــان
اذ أنـــا فى لــــذة وأمن أباكر اللهـــو غـــير وان
أستقبل الدهر فى صفاء وما درى كاشـــح مـــكانى
أرضيت بالطيبات نفسى فى غـــير اثم ولا افتتان
ان كان فى قبلة جناح فاننى منه فى أمـــان
لم استبح نيلهـــا فجورا بل قال بالحل مفتيان (٢)
قد نلتها واستزدت منهـــا لو بعض ما نلته كفـــانى

ثم يقول فيما يشبه التنهيدة الحزينة ...

ثم طـــوى الدهـــر ذاك عنـــا
ليت الردى قبـــــله طـــوانى

---

(٢) يقول ان هناك مفتيين أفتيا بجواز القبلة بين العاشقين !

٦

تلك أبيات اشتممنا فيها بعض عبق من هذا الماضى الذى تناولناه بالحديث ، وقد نكون مغالين فى ظنوننا وقد يختلف الواقع معنا اختلافا كبيرا ، ولكننا نحاول أن نثبت أقدامنا ، فى بداية طريقنا الشـاق الذى اخترناه لأنفسنا ، لعلنا نظفر فيه بالمزيد ..

لكننا ــ هنا ــ سنكتفى بهذه المقطوعة لنعود الى قصيدة أخرى نلمح فيها ظلالا من ذلك الحب ، وسنكتفى منها أيضا بهذه المقطوعة التى تقول :

يا خليلى لست أخدع نفسى
باتناف الهوى فلا تخدعانى
قد بلوت الهوى فماذقت منه
غير مر النوى وحلو الأمانى
لا رعى الله منذ عامين عهدا
لى بهذا المهفهف الفتان
مانح الوصل للخلى ومهدى
لوعة الصد للمحب العانى
مطمعى بالمقال منه ومدنى اليأ
س منى بنائل غير وان
ما ألذ الصدود منك اذا لم
تبغه وصلة لارضاء ثان (١)

ان احساسا طاغيا ببقايا حب لم يثمر ، يتضح فى هذه الأبيات فالحبيبة هنا قريبة ممن لا يفكر فى قربها، بعيدة عن الذى أحبها ولقد كان يرضى بهذا الصدود ، لو لم يكن وسيلة لارضاء الرجل الثانى الذى يستمتع من دونه بكل شيء ...

(١) نشرت فى مصر الفتاة ١٩٠٩/٩/٢١ .

ومع ذلك فان السؤال الحسن الظن لا يزال قائما وهو ...

أيمكن لحب الثالثة عشرة أن يكون له هذا الأثر .. ؟ واذا كان قد أحب فعلا !!

فهل كان هذا هو حبه ؟

أم كان حبه من لون آخر ، وبعد عدد من السنين ؟ الحق ...

انى لا أعلم أنه تحدث بصراحة تشبه اليقين عن حبه ...

الا بعد عودته من فرنسا ..

وكان حديثه عن .. تلك السيدة الفضلى صاحبة العينين اللتين أبصر بهما ...

٧

لم تحس المدينة ذات الألف مئذنة (١) بذلك الفتى القادم اليها من الصعيد الأوسط ...

فلم يكن يومئذ الا واحدا من آلاف القادمين اليها، أو النازحين عنها ..

لم يكن بعد ... ذلك الذى ملأ الدنيـا وشغل الناس ، كما قالوا عن « المتنبى » فى زمان مضى .

لقد كان فتى ضريرا .

(١) تعريف مشهور للقاهرة .

لكنه كان يحمل قلبا تتقشع أمامه الظلمات •••

كان هش الجسم •

الا انه كان يحمل اصراره على بلوغ هدفه ، وكان اصراره جبارا عنيدا ••

ثم هو بعـــد ذلك ••• يحمل أمل أبيه ، وكلماته التى زوده بها يوم أن غادر القرية •

« •• أما فى هذه المرة •• فستذهب الى القاهرة وستصبح مجـــاورا ••• وستجتهد فى طلب العلم وأنا أرجو أن أعيش حتى أراك من علماء الأزهر ، قد جلست الى أحد أعمدته ومن حولك حلقة واسعة (١) •• »

« ••• وأقبل الى القاهرة •• والى الأزهر ، يريد أن يلقى نفسه فى هذا البحر ، فيشرب منه ما شاء الله له أن يشرب ، ثم يموت فيه غرقا ، وأى موت أحب الى الرجل النبيل من هذا الموت الذى يأتيه من هذا العلم ، ويأتيه وهو غارق فى العلم •• ؟ » (٢)

(١) الأيام جـ ١ فصلة ١٩ هذا وقد توفى والد طه حسين سنة ١٩٤٠ بعد أن طبقت شهرة ولده الآفاق •

(٢) الأيام جـ ٢ فصلة ١ •

ولقد ألف الفتى أن يخرج من أحد أبواب الأزهر ثم يمشى فى دروب متعرجة ، تضيق أحيانا ، وتتسع أحيانا أخرى ، وهى فى أغلب أجزائها مزدحمة ازدحاما لم يعهد مثله فى القرية ..

ويظل يسير حتى يقترب من الحرم الحسينى ، ومن ثم يبلغ الدار التى يسكنها ، أوقل يسكن غرفة فيها ، ثم هو يصعد الى هذه الغرفة ، على درج رطب ، كأنما صنع من طين لم يجف بعد .

كانت الأصداء التى تصعد اليه وهو فى الغرفة ، غريبة فى مجسوعها ، لم يألف الفتى مثلها من قبل ، وانها لتختلف أشـد الاختلاف : وتتداخل كأكثر ما تكون المداخلة ، وتمتزج امتزاجا عجيبا « .. أصوات النساء يختصـمن ، وأصـوات الرجال يتنـادون فى عنف ، ويتحدثون فى رفق ، وأصوات الأثقال تحط وتعتل ، وصوت السقاء يتغنى ببيع الماء ، وصوت الحوذى يزجر حماره أو بغله أو فرسه ، وصوت العربة تئز عجلاتها أزا ، وربما شق هذا السحاب من الأصوات ، نهيق حمار أو

صهيل فرس .. » (١)

وأحب الفتى القاهرة حبا ملك عليه وجدانه ، حبا نسى القرية فى ظلاله ، واستقطبه هذا الحب الى الحد الذى كان يخشى فيه أن يذكره أحد بأيامها (٢) .

ومن ثم « اختلف الى أحياء المدينة الدوامة ، فكان يحس اختلافها ، وتباين أجوائها فيما يصل اليه من أصوات الناس وحركاتهم ، ومن اضطراب الأشياء حوله .. » (٣)

وفى هذه الأحياء المختلفة ، نما فكره ، واتسع أفقه ، لما تضمه القاهرة من ألوان المتعة والعذاب ، ولما يلاقى الناس فيها ، من رفاهية وحرمان ، ولما ينعمون به من نعيم ، ويشقون به من شقاء ...

---

(١) الايام جـ ٢ فصلة ١ .

(٢) أديب تاليف الدكتور طه حسين فصلة ٢ .

(٣) المرجع السابق فصلة ٣ .

٨

وهو ــ بعد ــ شاب فيه مرح الشباب ، وان ارتدى رداء الجد يريد أن يعب من متع الحياة عبا ، لولا أن قعدت به أشياء وأشياء ، أيسرها عسره المادى الذى كان يلزمه « بأن ينفق الأسبوع والشهر ، لا يعيش الا على خبز الأزهر ، وويل للأزهريين من خبز الأزهر .. وأن ينفق الأسبوع والشهر والأشهر ، لا يغمس هذا الخبز الا فى العسل الأسود .. » (١)

(١) الأيام جـ ١ فصلة ٢٠ .

وان كان أحيانا ، وبعد أن أقام فى القاهرة زمنا لا بأس به ، قد استطاع أن « .. يذوق التين المرطب ، وأن يشرب نقيعه فى الصيف ، وأن يذوق البسبوسة وان يستمتع بما تبعثه من حرارة فى الأجواف ، أثناء الشتاء .. » (١)

بل انه استطاع « .. أن يقف عند بعض الباعة من السوريين وأن يذوق ألوانا من الطعام : وكان من هذه الألوان ما هو حار وما هو بارد ، وما هو حلو وما هو مالح، وكان يجد (وقتئذ) فى ذوقها لذة لا تقدر ..» (٢)

وهى ألوان قال عنها فيما بعد « .. انها لو قدمت اليه ، لأشفق أن تحمل اليه العلة ، أو تغرى به الموت .. »

ومن هنا كان صريحا فى شعره ، أو قل غلبت عليه صراحته حين أراد أن يعبر عن مكبوتاته فقال :

أنا لولا سوء حظى لم أكن الا ابن هانى (٣)

---

(١) ، (٢) الأيام جـ ٢ فصلة ٢ .
(٣) قصيدة يوم القران مصر الفتاة ١٥/١/١٩١٠ .

و « الحسن بن هانى » المشهور « بأبى نواس » رجل أطلق لنفسه العنان فى طرق اللذة ، فلم يقف بها عند حد يرجى عنده الوقوف ، فهل ترى نطق فتانا ببيته هذا تنفيسا عما يحسه كما نظن ؟ أم قاله وهو يعبث فى حفل زفاف صديق له (١) فليس عليه من معتب ؟

فاذا تركنا هذه المناسبة المرحة ومقتضياتها ، فاننا نسمعه وهو يقول من قصيدة أخرى :

حاشا لله أن أكون خليـــا
من هوى الغيد أو غرام الغوانى
أنا أصبو الى الغـرام ولا يعر
ف لى فى الجنون بالحسن ثان (٢)

أو الى قوله من قصيدة ثالثة :

أنا لولا الحياء أفشيت للنـا
س أمورا يكلحن وجه الزمان (٣)

---

(١) هو الأديب الأستاذ أحمد حسن الزيات صاحب الرســالة فيما بعد .
(٢) قصيدة فى القاهرة مصر الفتاة ١/١٠/١٩٠٩ .
(٣) قصيدة الحبيب المريب نفس المجلة ٢١/٩/١٩٠٩ .

فنتساءل ثانية ، هل الذى نراه فى هذه الأبيات ، مظهر من مظاهر العنترية فى مجال الصبوات ؟ بينما تختفى تحتها أخاديد من الحرمان القاسي ؟

ربما ..

.. ثم ألا نوشك أن نسمع صدى حرمانه فى هذه الأبيات .

شــف قلبى ما يعــانى
من تباريح الجــــوى
يعشــق الحســن ولكن
ليس يحظى بالوصــال
أنا من وصــــل حبيبــى
بين صـــد ونــوى
مــن عذيرى مــن بخيــل
ضــن حتى بالخيــال (١)

بل انه ليكاد يصرخ ، معبرا عن ضيقه بالقيود التى تحول بينه وبين ما يريد ، ذلك اذ يقول :

---

(١) قصيدة « ليت للحب قضاة » مصر الفتاة ١٩١٠/١/٧ .

سـيقولون حـرام
قلت ليسـت بحـرام

انمـا حـرم ربى
فى الهوى ما كان رجسـا

أى ديـن أو كتـاب
لم يبح ورد الغـرام ؟

لا شفى الله لأهل المين والتضليل نفسـا (١)

وانه بعد ذلك يحاول أن يبرر اندفاعاته السابقة فى القول ، بوضع التبعة كلها على عاتق الحسن الذى يغرى الاتقياء بالشطط فيقول :

لا أرى للغرام فى الغى ذنبـا
انما الذنب للوجوه الحسـان

هن أغرين بالجمـال نفوسـا
برئت من معادن الشيطان (٢)

(١،٢) قصيدة الحبيب المريب .

٩

وان الحياة لتغرى الفتى اغراء شديدا ، بما تزخرفه له من متع حسية ومعنوية ، حتى ليوشك أن ينفجر تماسكه ازاءها ، وبما يصل الى سمعه من أوصاف مثيرة لألوانها ، توشك أن تسحق — من فرط اثارتها — مشاعره ..

لكنه يجد نفسه فى حيرة من أمره ، وان حاول أن يخفى حيرته عن الناس ، اذ كيف يصل الى هذه المتع التى يستمتع بها من يشاء دونه ؟

وكأنما كان جواب سؤاله يتمثل فى قول سلفه العظيم .

فيــادارها بالخيف ان مزارها
قريب، ولكن دون ذلك أهوال(١)

ولقد أشار فى بعض ما أسلفنا له من حديث الى بعض هذه العوائق التى تحول بينه وبين ما يشتهى ..

ثم كيف له أن يطرق هــذه الدروب غير المأمونة العثرات وهو الفتى الضرير الذى يرتدى زى طلاب العلم الدينى فى الأزهر الشريف ؟ ثم هو لا يجد الى تغييرها من سبيل ! بل انه كان يدعو الى هذا الزى أحيانا ، وينتصر له ، ويدافع عنه ، فقد تحــدث مرة عن أزيائنا الشرقية فكان من حديثه ..

« .. مخطىء كل الخطأ صــاحب الزى الشرقى الجميل ، يستبدله بالزى الغربى ، مرضاة لهوى كاذب ، وشهوة خادعة ..

---

(١) البيت للمعرى فى ديوانه « سقط الزند » .

ان للشرق زيا تدعو اليه طبيعته ، وللغــرب زيا يقتضيه جوه واقليمه ، فليس تبديل الزى الشرقى بالزى الغربى فى الشرق صادرا الا عن نفس مرتبكة مختلطة ومزاج غير منتظم .. » (١)

وتحدث مرة أخرى فقال :

« .. قل بين أبناء مصر الذين يتعلمون فى أوربا ، أو يصطافون بها — وهم كثيرون — من يستبقى على رأسه العمامة؟ فالى هؤلاء المصريين الذين سيقرأون كلمتنا فى أوروبا نتقدم بالنصيحة الخالصة ، ألا يبيعوا كرامتهم بثمن بخس ، وألا يبلغ الضعف من نفوسهم هذا المبلغ المخجل » (٢) .

هذا فوق أنه ما كان يستطيع أن يغيب عن بيته فى « مشوار » خاص الا بعد أن يستأذن أخاه (٣) ...

وانه ليحاول أن يختلس الفرصــة اختلاسا ، لعله

---

(١) الجريدة ١٩١٠/١٠/٣٠ .
(٢) الجريدة ١٩١٠/١١/٢ .
(٣) أديب فصلة ٣

يظفر بساعة من يومه ، ينفقها ان استطاع فى لهو برىء ، وانه ليحدثنا عن حرجه الشديد ، وقد قادته قدماه فى احدى الليالى الى ملهى من الملاهى التى يختص بها حى كامل من أحياء القاهرة (١) فيقول :

« ... كنت منذ أيام فى ملهى من الملاهى العامة التى يجب أن تتخذ مثالا صادقا لذوق الجمهور ، وقد يكون هذا التصريح خطرا جدا فان الجمهور لا يقبل من كاتب مثلى أن يزج بنفسه فى المراقص وأندية الغناء، بل ان أسرتى نفسها قد تنكر على ذلك أشد الانكار ، لأنها لا ترضى منى الا أن أسلك سبيلا واحدا هو ما بين البيت والمدرسة ...

وقد ألوم نفسى أيضا على ذلك ، بل لمتها من غير شك أشد اللوم ، وأنبتها أشد التأنيب .. » (١)

يقول هذا وهو يعلم أن أحد مشايخه الذين يتلقى

---

(١) كان حى الأزبكية فى ذلك الوقت يضم أكثر ملاهى القاهرة راجع فى « ربوع الازبكية » لمحمد سيد كيلانى .

عنهم العلم ، كان من رواد ملهى « الف ليلة » يستمتع فيه كل ليلة ، بما يستمتع به عشاق اللهو المباح ، وقد كان مبلغ علم فتانا ــ من قبل ذلك ــ أن « ألف ليلة » لا تزيد عن كونها كتابا ، يعرض للناس صورا مكتوبة عن ألوان من اللهو القديم .. (١)

(١)الايام جـ ٢ فصلة ١٧ .

١٠

ويعيش الفتى فى « الأزهر الشريف » مع شيوخ له ، يكبر بعضهم ويجله ، ويسعى اليه سعيا ، اما لسعة علمه ، أو رحابة صدره ، أو طريقة أدائه ، أو لتقارب ميوله وميولهم ، ومن هؤلاء نذكر « الشيخ سيد المرصفى » الذى يذكره فتانا فى الجزء الثانى من « أيامه » بمنتهى الحب والتقدير (١) اذ كان أديبا ذواقا ناقدا ينظم الشعر أحيانا ، ويحكم فى أعوص المشكلات

(١) الأيام جـ ٢ فصلة ١٩ .

بما يراه عقله أحيانا آخرى ، ومن ثم لم يجد التزمت الى وجدانه سبيلا ، بل انه ليفتح الأبواب المغلقة أمام تلاميذه ، لمن أراد منهم أن يتكلم فى أى موضوع مهما كان شائكا ، الأمر الذى جعل الفتى يتحدث بلا حرج فى أعقد المواضيع ثم لا يعبأ بما يثيره حديثه من خلاف فى الرأى ، أو بما يجره من نقمة عليه ، وان «طه حسين» ليذكر بكلمات قوامها الأسى والشجن، كيف أن الوظيفة أرغمت الشيخ « المرصفى » على أن يصبح مجرد قارىء للكتب المقررة يتلوها على الطلاب وحسبهم أن يستمعوا اليه ..

ذلك ان الشيخ كان يلقى دروسه عليهم من كتاب « الكامل للمبرد » يشرح وقائعه ويعلق عليها ، وقد كشفت مناقشات الطالب لأستاذه أمام المسئولين أن « المبرد » كان « معتزليا » واذن فدراسة كتابه اثم ، كما أفتى بذلك « الشيخ محمد بخيت » (١) ومن هنا قررت المشيخة منع « المرصفى » من تدريسه له وأن

---

(١) الأيام جـ ٢ فصلة ١٩ .

يستبدل به «المغنى لابن هشام» وأن ينقل الشيخ من «الرواق العباسى» الى عمود بداخل الأزهر ، فلما هم الفتى ــ ذات مرة ــ بعد هذه الواقعة ــ أن يناقش أستاذه كما عوده من قبل ، قال الشيخ فى أسى بالغ (لا يا بنى احنا عاوزين ناكل عيش) .

ويقول «طه حسين» انه لم يحزن منذ عرف الأزهر كما حزن حين سمع هذه الجملة من أستاذه (١)

وليس هذا هو الحادث الوحيد الذى رواه لنا «طه حسين» عن شيخه «المرصفى» .

فلقد روى لنا أيضا أن الشيخ تحدث مرة أمام تلاميذه فزعم أن «الشيخ الأكبر» لم يخلق للعلم ولا للمشيخة وانما خلق لبيع العسل الأسود فى «سرياقوس» وكان «المرصفى» قد فقد أسنانه ، فكان ينطق السين ثاء ، وكان يتكلم لهجة «القاهرة» فكان يجعل القاف همزة ويمد الواو بينها وبين السين ، وكان يتكلم هامسا ، فلم ينس التلاميذ قط ، هذه الجملة التى طبعوا بها الشيخ «حسونة» رحمه الله ،

---

(١) الأيام جـ ٢ فصلة ١٩ .

فسموه ، « بائع العثل فى ترياؤث » (١) ولكن بائع « سرياقوس » هـذا كان حازما صـارما ، يخـافه الشيوخ جميعا ، ومنهم الشيخ المرصفى الذى أرغمـه الشيخ الأكبر على أن يصبح مجـرد قارىء للكتب المقررة (١) خلف أحد أعمدة الأزهر الداخلية .

ولقد ظل أثر هذه الواقعة يحز فى أعماق « طـه حسين » حتى أظهر ما فى نفسه من الغيظ فى أبيـات ساخرة من شعره ، تعرض فيها للشيخ الأكبر ، الذى دبر لأستاذه هذه الهزيمة ، مستغلا فيما نظم ، حادثا قد انساق الشيخ الأكبر اليه ، من حيث لا يدرى ، أو من حيث يدرى ؛ فلم يكن تحقيق ذلك بالأمر الذى يثنى « طه حسين » يومئذ عن اغتنام الفرصة التى سنحت ..

وسنذكر هذه الأبيات فى موضعها من هذا الكتاب

---

(١) الأيام جـ ٢ فصلة ١٩ .

١١

ومن شيوخ « طه حسين » الذين أحبهم أيضـــا، « الشيخ عبد الله دراز » الذى كان يدرس « النحـــو » له ولزملائه فى أسلوب سلس سهل ، وفى أبوة حانية ، أحبها الطلاب فيه ..

ولقد أحب الشيخ فى طلابه ، اقبالهم على درسه ، وحسن انصاتهم اليه ، وتفهمهم لما يقول ويريد ، ولكن « مشيخة الأزهر » قررت نقله الى معهد الاســـكندرية

الدينى ، وعارض الشيخ وشاركه الطلاب فى المعارضة .
ولكنه رضخ فى النهاية ، ورضخت الطلاب ، ونقل
الشيخ •

وانه ليبكى مخلصا يوم فارق طـــلابه ، وانهم
ليبكون مخلصين كذلك فى هذا اليوم العصيب » (١)

ولقد حدث بعـــد انتقال « الشيخ دراز » الى
الاسكندرية أن عينت « المشيخة » شيخا آخر ليخلفه
فى تدريس « النحو » ••

وكان الشيخ الجديد معجبا بنفسه ، لكنه لم يكد
يتقدم للدرس الرابع من دروسه حتى كانت بينه وبين
الفتى قصة صرفت الغلام عن دراسة النحو صرفا ••

كان الشيخ يفسر قول « تأبط شرا » (٢)

فأبت (٣) الى « فهم » وما كنت آيبا
وكم مثلهــا فارقتها وهى تصــفر

---

(١) الأيام جـ ٢ فصلة ١٧ •

(٢) الشاعر الجاهلى جابر بن ثابت الفهمى المشهور بتأبط شرا
و « فهم » الواردة بالبيت الآتى هى قبيلة الشاعر •

(٣) فأبت — عدت أو رجعت من الأوبة •

فلما وصل الى قوله « تصفر » قال ان العـرب كانت اذا اشتدت على أحدهم أزمة أو محنة ، وضعوا أصابعهم فى أفواههم ونفخوا فيها فكان لهـا صـفير يسـمع ..

قال الغلام للشيخ :

واذا فما مرجع الضمير فى قوله « وهى تصفر » ؟ وفى قوله : وكم مثلها فارقتها ؟

قال الشيخ :

مرجعه « فهم » أيها الغبى

قال الغلام :

فانه قد عاد الى « فهم » والبيت لا يستقيم على هذا التفسير

قال الشيخ :

فانك وقح ، وقد كان يكفى أن تكون غبيا

قال الغلام :

ولكن هذا لا يدل على مرجع الضمير !

فسكت الشيخ لحظة ثم قال :

انصرفوا .. فلن أستطيع أن أقرأ لكم وفيكم هذا الوقح

ونهض الشيخ، وقام الغلام ، وقد كاد الطلاب يبطشون به لولا أن حماه زملاؤه من أهل الصعيد .. حموه .. بأن أحاطوا به ، وأشهروا نعالهم فتفرق الناس عنه ، وأى الأزهريين لم يكن — فى ذلك الوقت — يفرق من نعال أهل الصعيد ؟! (١)

وهكذا استطاع « طه حسين » أن ينجو من الهلاك فى هذه الموقعة تحت حماية من النعال !

ولم يعد الغلام الى درس النحو عند ذلك الشيخ، وانما ذهب الى شيخ آخر من أهل الشرقية ، كان يلقى دروسه فى رواق « الشراقوه » وكان يقرأ لطلابه «شرح الأشمونى » ولم يسكت فتانا ، بل راح يسأل الشيخ فى بعض النقاط ، فرد عليه بما لم يقنعه ، فأعاد عليه

(١) الايام جـ ٢ فصلة ١٧ .

السؤال ؛ فغضب الشيخ ؛ وأمره بالانصراف فاستعطف أصدقاؤه الشيخ ليعفو عنه ، لكن الشيخ ازداد غضبه وأبى أن يمضى فى الدرس ، حتى يقوم الفتى المشاكس من مجلسه ، وأن يقوم معه الذين توسطوا له ، ولم يكن لهم بد من أن ينصرفوا ، فقد اشهرت عليهم نعال الشرقية ولم تكن نعال الشرقية ،

بأقل خطرا من نعال الصعيد (١)

وهكذا :

نجا « طه حسين » من الهلاك هذه المرة ، تحت النعـال

---

(١) الأيام جـ ٢ فصلة ١٧ .

١٢

هكذا كان نصيب الفتى من بعض شيوخه ، الذين رأوا فيه فتى متمردا على ما درجوا عليه من علم ، ومن طرائق فى تعليمه ، فأرادوا الحد من تمرده ، بترويضه وكسر شوكته ، فكان ما بينه وبينهم من نفور ..

لكن من الانصاف أن نذكر ، أن هناك من تحمل مشاكسة الفتى وراح ــ برغم جموده ــ يميع هذه المشاكسة بشىء من السخرية ، وبرصيد من رحابة الصدر ومن هؤلاء « الشيخ محمد بخيت المطيعى » الذى كان

يلقى دروسه فى الفقه على طلابه فى الصباح .. كان الشيخ ينشد طلابه ـ أحيانا ـ شيئا من شعره اذا صفا وطابت نفسه للانشاد ، وقد حفظ الفتى عنه بيتا من الشعر ، لم ينس قط صوت الشيخ وهو يتغنى به ، وهذا البيت يقول :

كأن عمته من فوق هامته

شنف من التبن محمول على جمل

وقد روى الفتى هذا البيت لأخيه وأصحابه ، وكان الفتى ، ربما جادل الشيخ فأطال الجدال ، وقد أسرف فى الجدال مرة فى الطول ، حتى تأخر الدرس عن ابانه ، وتصايح الطلاب من جوانب المسجد الحسينى بالشيخ أن حسبك فقد نفد « الفول » « وكان الفول النابت غذاء رئيسيا لطلاب الأزهر الشريف وقتئذ »

فأجابهم الشيخ فى غنائه الظريف :

لا والله .. لا نقوم حتى يقتنع هذا المجنون (١) .. ولم يكن من بد للمجنون أن يقتنع ، فقد كان هو أيضا حريصا على أن يدرك الفول قبل أن ينفد ..

---

(١) الأيام جـ ٢ فصلة ١٩ .

وهكذا أنقذه الحرص على طعامه من اصابته بالأذى الذي كان يمكن أن يناله ، لو حدث واشتبكت النعال هذه المرة في معركة له أو عليه •

ولقد كان «هو» وفتيان من أصحابه (١) يستمعون الي دروس « الشيخ بخيت » لكن ، ليس كما يستمع الطلاب ، وانما كانوا يسمعون له ، ليضحكوا منه ، وليقيدوا عليه أغلاطه ، وقد كانت كثيرة ، فيما يقول « طه حسين » (١) ولا سيما حين كان يعرض للغة والأدب، وليعرضوا هذه الأغلاط على شيخهم «المرصفي» ليتخذ منها مادة جديدة للتشنيع على أساتذته وزملائه من الشيوخ ومع ذلك فان الفتية الثلاثة كانوا يطمعون في رحابة صدره •

حدث أنهم اشتركوا في مناقشات حادة حول كلمات رواها «المبرد» في كتابه «الكامل» عن « الحجاج بن يوسف الثقفي » اتهمه الشيوخ من أجلها بالكفر ، ذلك ان «الحجاج» قال عن الذين يطوفون بقبر النبي ومنبره

---

(١) سمعت من بعض شيوخ المتأدبين أنهما الأستاذان أحمد حسن الزيات ومحمود الزناتي •

« انما يطوفون برمة وأعواد » ولكن الفتيان الثلاثة قالوا « انه ليس فى هذه الكلمات ما يكفى لتكفيره وانما فيه سوء أدب فى التعبير » (١) فأثاروا باعتراضهم هذا عواطف غيرهم ، ونقل الغاضبون منهم القصة كاملة لشيخ الأزهر ، واذا بالفتيان يدعون الى حجرته « .. فيذهبون واجمين لا يفهمون شيئا ، فاذا دخلوا عليه لم يجدوه وحده ، وانما وجدوا حوله أعضاء مجلس ادارة الأزهر وبينهم الشيخ بخيت ، وشهد شهود من الطلاب بكلامهم الذى اعترضوا به على تكفير الحجاج ، ونقلوا كذلك رأى الفتية فى الشيخ بخيت « وكان رأيهم فيه لا يسر بطبيعة الحال » وسئل الطلاب الثلاثة فلم ينكروا ، وانصرف الطلاب ، وقد أمر الشيخ الأكبر امامهم ، بمحو أسمائهم من سجلات الأزهر ..

ومع ذلك فقد طمع الطلاب الثلاثة فى رحابة صدر « الشيخ بخيت » وذهبوا اليه فى داره ليوسطوه عند

---

(١) الأيام جـ ٢ فصلة ١٩ هذا وقد تبين لطه حسين وزملائه فيما بعد أن قرار شيخ الأزهر بفصلهم ليس جديا وانما كان مجرد تهديد (نفس المصدر والرقم) .

شيخ الأزهر فى هذا الموضوع •• ولقد تلقاهم الشـيخ بخيت ضاحكا ، ومع ذلك فقد اشتد الحوار بينه وبينهم حتى نسى الفتية أنهم جاءوا مستعطفين ، وأخذوا يجادلون الشيخ حتى أحفظوه ، وانصرفوا عنه وقد ملأه الغضب، وملأهم اليأس ، ولكنهم مع ذلك تضاحكوا من الشيخ وأعادوا بعض كلماته (١) •• ذلك بعض الذى دار بين « طه حسين » وبعض شيوخه فى هذه الفترة ، فكان مصدرا لشعر كثير ، قاله هجـــوا فيمن لم يرتح اليهم وأذاعه فى أرجاء الأزهر حتى تسامع به الخاصة والعامة يومئذ لكننا لم نعثر على شىء منه يمكن أن يكون ذا غنـاء •

---

(١) المرجع السابق (نفس المصدر والرقم)

١٣

نعود بعد هذا الذى قدمناه عن بعض شيوخ « طه حسين » الى رفاق شبابه ، من الذين كانوا يطلبون العلم مثله ، ويحرصون على حضور مجالسه ، حرصه أو أشـــد ..

وان بعضهم يرى فيه ، وقد فتن بأحاديثه الشهية الطلية وبجرأته على القول فيما تجفل الأغلبية عن مجرد التفكير فيه .. يرى فيه الفتى الخبير ، الذى لا يغيب عن واعيته شىء مهما دق والذى لا تعجزه المعضـــلات

مهما تضخمت ، والمشكلات مهما تعقدت •• وان بعضهم ليستعتبه فيما يعرض للشباب من هدى جامح ، أو حب جارف ، أو غرام يائس ، وانه ليجيبهم كذلك فى سمت الوقور الذى أغنته التجارب ، باجابات فيها ثقة من علمته الحياة ، فأصبح بشئونها وشجونها عليما خبيرا ••

ولنستمع الى المقطوعة التالية من شـعره ، ففيها واحدة من فتواه ، التى أفتى بها أحد رفاقه ••

أيها العاشق الذى ضـاق ذرعا
بشـئون الغـرام فاسـتفتانى

قد هوينا كما هويت وقد ••
نعلم أن الهوى من اسم الهـوان

غـير أنى أرى شـفاءك فيمـا
قد تلمست طبــه فشـفانى

كنت أهـوى وما أخـالك الا
ذاكرا ما لقيتـــه من فـلان

شـفنى حبه كمـا شـفه حبى
فـلم يعـد أن أذل مـكانى

مال بالـــود حيث مالت رياح
فكفى نفســه الهوى وكفانى

مثل هذا الحبيب خـــير وأبقى
لك اسـلامه الى النســيان (١)

ولقد يلحظ القارىء تلاعب « طه حسين » بلفظــة « الهوى » في الشطرة الثانية من البيت الثانى من هذه المقطوعة ، اذ يقول « ان الهوى من اسم الهوان » وهو تلاعب معروف سبقه اليه القدماء ومنهم الذى قال :

وسألتهم باشـــارة عن حـــالها
وعلى منهـــا للوشــــاة عيون

فتنفست صعدا وقالت ما الهوى
الا الهوان أزيل عنــه النون (٢)

ومن نصائح « طه حسين » الشــعرية قوله من قصيدة « ليت للحب قضاه »

أيها المغـــرم بالحســن تخـــير لهـــواكا ..

---

(١) من قصيدة الى القاهرة .

(٢) نشوة السكران تأليف محمد صديق خان ص ١٧ .

فهـــو للأبصار والألباب فنان خلوب ..
صن غراس الحب أن يهدى جنبــا لســـواكا
ليس عهد الحب الا صـــلة بين القـــلوب

١٤

ولقد يضيق صدره أحيانا بتعلق هؤلاء الرفاق به ، وملازمتهم اياه ، فكأنما يحملهم على كاهله . ومن ثم ينطلق لسانه فيعلن تبرمه بهم ، وسخطه عليهم ، بل ويجعل من كثرتهم هذه مصدرا لسوء حظه ، فيقول :

أنا لا أجتوى من الدهر الا
سوء حظى من كثرة الأخوان (١)

---

(١) قصيدة فى القاهرة .

وهو يقول فى هذه القصيدة :

لا أحب الصـــديق ان لم يشـــا

ركنى تبل السرور فى أحزانى (١)

فهل صحيح انه لم يتحقق له أن يرى صديقا من هذا النوع ؟ انه فى البيت التالى يراهم جميعا ..

كلهـــــم ثعلب اذا أعـــوزته

حاجــة زارنى والا ازدرانى (١)

ومن أجل ذلك فهو يتمنى لو أنهم فارقوه جميعا .

لقـــد شئت الصـــحاب حتى

وددت لو كلهــــم جفــانى (١)

والحق ؛ أنى لا أدرى سببا قاطعا لضيقه بهم بلا استثناء ، وأكاد اذا حاولت تلمسا لهذا السبب أن أرجعه الى الشك الذى كان يراود تفكيره فى مدى اخلاصهم له ..

والذى أعرفه أن كثيرا من المكفوفين ؛ لا يمنحون ثقتهم كاملة للآخرين بســـهولة ؛ بل انهم — أحيانا — يفسرون أعمال أصدقائهم ؛ التى صدرت عنهم بحســـن نية ، تفسيرا يمكن أن يمزق ما هو قائم بينهم من روابط

---

(١) المرجع السابق .

ذلك أن ملامح وجه المتحدث اليك يمكن أن تعينك على تفهم حقيقة موقفه أحيانا ، وقد تساعد على الاقتناع بسلامة نية الذى صنع صنيعا لم يوافق هوى فى نفسك وان المكفوف — وقد فقد هذه الخـــاصية — ايلتمس مواطن الريبة . فى صوت محدثه ، وفى نبراته ، كيف تختلج هنا وكيف تستقر هناك . وان شكه ليسبق يقينه فى كثير من الحالات .. ولقد كان فتانا شاكا بطبعه ، وكان شكه هذا . ممهدا لأسلوبه العلمى الذى نضج فيما بعد : حينما اتخذه منهجا : وان يكن قد تلقى أصول الشك العلمى عندما ذهب الى « فرنسا » بعد سنوات ، فأصبح عنده قاعدة مدروسة ، لكنه فى هذه الفترة — التى نؤرخ له فيها — كان شاكا بالفطرة التى لم تهذب كثيرا ، بل انه كان متقلبا أحيانا ، وانه ليتقلب فى شعره الى الدرجة التى تنتهى به الى التناقض التام فى بعض الحالات .. نستمع اليه فى قصيدة نشرها بمجلة « مصر الفتاة » يوم ٢١ سبتمبر ١٩٠٩ وهو يقول :

لا أحب الهـــوى اذا لم تشـــــبه
شائبات الصدود والهجــــران

ثم نستمع اليه فى قصـــيدة أخرى نشرها بنفس المجلة يوم ١ أكتوبر سنة ١٩٠٩ أى بعد عشرة أيام فقط من نشره للقصيدة السابقة وهو يناقض نفسه فيقول :

لا أحب الهوى اذ اعترضـــته
شـــائبات الصدود والهجـــران

فما هى العوامل التى جعلته يغير رأيه من النقيض الى النقيض فى هذه الأيام القلائل ؟

أهو احساس صادق فعلا، نابع من طبيعته وتكوينه؟

أم انه نسى ما قاله ، فكان أن حكمت عليه الصنعة أن يقع فى هذا التناقض ؟ ولنتأمل — بعد ذلك — هذه الأبيات التى نختارها من احدى قصائده وقد حـــاول فيها ان يبرر تصرفاته حيال هؤلاء الأصدقاء ، فقد يتضح لنا ما نجهله عن الحقيقة التى كان يعايشها ، أو ندرى مدى الشك الذى أغرق فيه مشاعره ، وقديما قالوا :

« لعل له عذرا وأنت تلوم »

لا أحب الهـــوى اذا اعترضته
شائبات الصـــدود والهجـــران

ذاك انى أرى الصدود رسو
ل البغض أو قبضة من العدوان

فاذا ما بلوته من خليل
لم أسئه ألويت عنه عنانى

هذه خلتى وان لم يقابلها
رفاقى الا بالاستهجان

أنا ان أشك صاحبى فقديما
لم أجد فى الصحاب من أشكانى(١)

فعلام اذن يشكو شاعرنا الفتى من هؤلاء الرفاق الذين لم يتقدم واحد منهم بشكاة منه قط كما يتضح لنا من البيت الأخير ؟

(١) قصيدة فى القاهرة وأشكانى أى اشتكانى .

١٥

ويظل «طه حسين» فى دوامة هذه المعارك النفسية، يعانى من ضراوتها ما يعانى ..

وما تزال المسافة بين آماله والواقع شاسعة الأبعاد ، انه ما يزال فى الحضيض ، وقد ارتفع الى القمة كثيرون ، وانه ليشكو بؤسه وما يلاقيه من عنت الأيام ؛ وان كان الاباء يغلف شكواه .. فيقول :

نام ليلى واسعدتنى الأمانى
وعدانى تقلب الحدثان

بـين حـــالى مسرة ونعيــم
أنا من ان تقلصــا فى أمــان

لايرع حاســداى أو لا يهنا
بسرورى ونعمتى خـــلانى
عـلم الله أن حظى من البــؤ
س كبــير لكننى غـير عانى
كل حظى من الســعادة أنى
رضت نفسى على خطوب الزمان(١)

وهو يعلن رضاه بالواقع الذى يعيش فيه ، لكنــه رضاء المكره ، الذى لا يملك لما يضيره ردا ، فهو كما يقول القدماء « مكره أخاك لا بطل » فيقول :

بينى وبين الزمان حــرب
لا صــنع الله للزمــان
من حارب الدهر لم يسعه
الا رضاء بكل شــان (٢)

---

(١) قصيدة فى القاهرة .
(٢) قصيدة الفجور بعد العفة .

ويتابع عرضه لقضيته ، فيبين انه برغم صغر سنه ، قد اغتنى بتجاربه العديدة ، وأنه أصبح بسببها مرنا أمام الحوادث العاصفة ، لا يتحداها فتحطمه ، ولا ينجرف معها فتضيع شخصيته ، لقد امتلك زمام نفسه ، فأصبح عنده كشعرة « معاوية » يجذبها ويرخيها طبقا للظروف المحيطة به ..

لم أمض عشرين غير أني بلوت دهرى كما بلاني
ما أنا والحادثات الا كالريح والأغصن اللدان
أميل بالنفس حيث مالت مثبت الجأش والجنان (١)

ويلتفت فيرى أن أكثر الأدباء والشعراء من حوله يعانون من ضيق ارزاقهم ، وتلك سمة انتشرت فى ذلك العصر ، واشتهر بها عدد منهم ، حتى ادعاها بعض الذين لم يكونوا بؤساء فعلا ، حتى ظنها الناس لازمة للأدباء بالضرورة .

لكن « فتانا » يرى أنه بينما هو وأمثاله يرسفون

---

(١) قصيدة « الفجور بعد العفة »

في هذا العناء اذا « شوقي » يستمتع في كرمته ، بما لا يستطيع هو وأمثاله وقتئذ أنه يحلم به •

اذا شــــكا البؤس كل نــدب
فقـــد نجا منــه شــــاعران
بينا نعانيه كـــان « شوقي »
يقصف في كرمة «ابن هاني» (١)

وكان يرى أن « حافظ ابراهيم » رجل لا تحتويه الهموم . ما دام يمدح أعيان البــــلاد ، وعلى موائدهم يطعم من كل شيء ، ولا يحرم من شيء ثم هو ينــــال جوائزهم السنية ، على المدائح التي يصوغها فيهم ، اذ من محصول هذه الجوائز يســــتطيع أن يكون راضي الفـــؤاد ••

« وحافظ » في القطـار يلهـو
مشرد الهـــم غـير عــاني
اذ ينثني وهو بالصـــفايا (٢)
من صـلف الدهـر في أمــان

---

(١) قصيدة « الفجور بعد العفة » وابن هاني هو : أبو نواس ، وقد أطلق اسمه على قصر شوقي •

(٢) الصفايا = نفائس الاموال التي تهدى •

ثم يدعو للشاعرين الكبيرين ، دعاء الساخر منهما ويعلن ـ باسم زمرة الأدباء البائسين : أنهم راضون بما هم فيه من عناء ، وأنه مسرور لصداقة البؤس والأدب اللذين اجتمعا فى شخصه ..

فليطلب الشاعران نفسا انا رضينا بما نعانى
ما سرنى ساعة كبؤسى والأدب الغض صاحبان (١)

---

(١) المرجع السابق .

١٦

وان الموسيقى لتسرى فى دمه ، فهو ينتهج نهجا موسيقيا عندما يحاضر الناس ، أو يتحدث اليهم ، وان الكلمة لتأخذ حظها من الموسيقى قبل أن تتطرق الى أسماعهم : ومن ثم كانت محـــاضرته أشبه بمعـــزوفة موسيقية متصلة الحلقات ..

ولقد هزته موسيقى القاهرة هزا عنيفا عندما التقت به أو التقى بها لأول مرة ، فقد كانت من نوع خاص ، لم يستمع اليه حين كان فى القرية كان صبيا .. جـاء

ليتلقى علم الأزهر الشريف ، وكان يطل من نافذة الغرفة التى يسكنها ، عندما طرقت مسامعه أصـــوات فرقة الموسيقى النحاسية التى راحت تعزف ألحانها فى ذلك الزقاق العتيق ..

كان يزداد فى انحنـاءته من النـافذة ، رغـــم أنه لم يكن يبصر شيئا ، ليزداد قربا من هذه الأصوات المتجانسة . حتى لا يفوته منها شيء (١)

« .. لقد نسى الصبى ساعتها العلم والعلمـاء والأزهر وأهل الأزهر ، ونسى طعامه وشرابه ، وفنى فى هذه الموسيقى .. » (١)

وهو كذلك مولع بالغناء الى درجة الفناء فى ألوانه جميعا سواء أكانت من أغانى الشعب أو أغانى الشيوخ المحترفين (١) وان كان قد اكتشف أنه يؤثر الاستمـاع الى الغناء القديم من بين سائر ألوان الغناء (٢)

فقد كان ذواقة له ، مرهف الحس ازاءه ، رقيـق الشعور حياله ، مدركا بذوقه لأصوله ..

---

(١) الايام جـ ٢ فصلة ١٠ .

(٢) مقال لطه حسين فى مجلة مصر الفتاة ١٩١٠/١/١٥ .

حدثنا انه استمع الى احدى المغنيات ، فأساءه أن انحرفت المغنية عن الخط المرسوم للحن الذى تؤديه، انحرافا أخل به فكان أن خرج من الحفل ساخطا ، ويبدو مدى تأثره من هذا الانحراف فى مقال له عن هذه الواقعة جاء فيه :

« .. تسىء المغنية توقيع النغم ، وينحرف صوتها عن طريقه ، فيحدث فيه شىء من الاهتزاز والاضطراب، يكون مصدرا لجنون الجمهور ، واغراقه فى الصياح والتصفيق ، وهو فى الوقت نفسه ، دليل واضح على أن القوم ، لم يجيئوا للغناء ، وانما جاءوا لكل ما يستثير العواطف الكاذبة ..

أو انهم لا يرون الغناء الا أشبه شىء بما يتخذ على المائدة من الألوان التى تحرك شهية النفس للطعام .. » (١)

ولقد قرأنا ، أن تذوقه للموسيقى العالية ، وشغفه بسماعها من المبرزين فى صوغها وأدائها ، هو الذى

---

(١) الجريدة فى ١٩١١/٧/٣١ .

دعاه ـ فيما بعد ـ أن يطلب من الموسيقار الأستاذ « محمد عبد الوهاب » أن يحضر معه : تسجيل أغنية « الجندول » من « شعر على محمود طه » عندما سجلها « عبد الوهاب » فى استوديوهات الاذاعة لأول مرة(١)

---

(١) حسن شاه فى جريدة الاخبار ١٩٧٤/١١/١٨ .

١٧

وكان ــ قبل ذلك ــ قد نظم قصيدة للغناء باللغة الفصحى ، خرج بها عن القافية الموحدة ، كسرا ارتابتها، واختار لها وزنا راقصا ، يسهل على الملحن التلوين فيه، كما بناها بناء هندسيا خاصا ، يساعد على اجادة التلحين ..

لكن .. لم يغنها أحد .. فقد كان المغنون ، لا يتغنون بالشعر الفصيح ، الا اذا كان صاحبه مشهورا « كاسماعيل صبرى باشا » أو « أحمد شوقى بك » أو

من التراث القديم كلاما ولحنا ؛ وكان صاحبنا فى تلك الأيام .. مغمورا ، أو على الأقل ، لا تعرفه الا قلة من الناس ، حتى بلغ به الأمر أنه كان يبحث عن ناقد ينقده لعله يصل الى الناس عن طريقه فلا يجد ، فكان أن كتب مقالا بعنوان « من أيهم أنا ؟ » يتاهف فيه على ظهـور هذا الناقد ، جاء فيه : « .. فاما سيء الحظ من الكتاب فأحد اثنين ، رجل لم يلق من الناس الا انتقادا مرا ، وتشهيرا مخجلا ، لأنه لم يقصد الى الجادة ، ولم يوفق الى الصواب ، ورجل لم يلق من الناس خيرا ولا شرا ، ولم يبل منهم حلوا ولا مرا ، لأنه لم يكتب ما يستحق المدح والقدح ، أو لأن مقاله صادف من القراء أوقات الخمول والسآمة فمن أى هؤلاء يمكن أن أكون أنا ؟

خطر لنفسى هذا الخاطر ، فألقت على هذا السؤال بعد أن قرأت مقال الجمعة فاذا هو سابع (١) ما نشر بهذا العنوان وقد يكون الرابع عشر لما ينشر بهـــذا الامضاء (٢) واذ أنا كأول يوم كتبت ، لا أقول لأنى

---

(١) اى سابع مقال تحت عنوان موحد من قلمه .

(٢) اى بامضائه الصريح .

لم أسمع كلمة ثناء . فقد علم الله ما ابتغيتها اليوم ، ولا تمنيتها ، لأني أعلم أن آنها لم يؤن بعد ، وأدخرها لذلك اليوم الذي تطلبني فيه ولا أطلبها ، ولكن لأني لم أسمع كلمة ناقد ، ولم أر مقالا لعائب ، بعد أن دعوت القراء الى أن ينازعوني أطراف القول ، فيما اكتب وأقول ..

واقد كنت أحسب أن بؤسى مطبق فى كل شىء ، حتى فى الكتابة ، وأن موقفى زلق فى كل مكان حتى بين الكتاب ..

نظرت فاذا أنا لست من كتاب المنزلة الأولى فلم يرعنى ذلك ، لأن هذه المنزلة غاية ، يبلغها كل كاتب مثلى : لم يقف من حيث الاجادة والاحسان عند حد .. » (١)

---

(١) « طه حسين الشاعر الكاتب » لمحمد سيد كيلانى ص ٣٨ .

١٨

أما قصيدته الغنائية تلك ، فقد جعلها تسعة أسماط التزم في كل سمط منها بثلاث قواف مختلفة ، على نسق هندسي موحد في سائر الأسماط ، وهي بعنوان « آه لو عدل » وقد نشرتها مجلة « مصر الفتاة » في عددها الصادر بتاريخ ٣١ ــ ١٢ ــ ١٩٠٩ بعد أن مهدت لها بالتمهيد الآتي ..

« .. يرى القارىء ، في القصيدة الآتية ، أن صاحبها الأديب الفاضل انتهج فيها أسلوبا يظنه بعض

الأدباء من الأساليب الافرنجية ، لاتفاقها مع الشعر الافرنجي في التقاطيع والروى ولكن هذا النوع ، لم يفت العرب في جاهليتهم ، فقد كانوا ينظمونه ويسمونه « الشعر المسمط »

وقد جعلها تسعة اسماط ، وكل سمط أربعة أبيات يتفق البيت الأول مع البيت الثالث في الروى ، والبيت الثاني مع الرابع كذلك .. »

وها هي ذى نماذج اخترناها من هذه القصيدة :

شادن عطف	عطفة الحبيب
بعد ما صدف	صدفة الملول
كم سبا العقول	قوله الخلوب
يملك القلوب	ثم لا ينيل

أي لوعة	بين أضلعى ؟
أي عبرة	تذرف الشئون
ثم بالشجون	سح أدمعى
سر مولعى	ليس بالمصون

أيهـــا الغـــرام ويك هل تعـود ؟
كنت منـذ عـام منتهى الأمـــل
ما الذى فعـــل مدنف عميـــد
فيم ذا الصـدود آه لـو عـدل

أيهـــا الفـؤاد دونك الغـــزل
انمـــا الرشـاد فى هوى الحسان
ان يكن فـلان صـــده الخجل
فالهــــوى دول دعـــه للزمـان

وهى تجربة لا بأس بها ، وكان يمـكن أن تكون أكثر جمالا وسلاسة مما هى عليه ، لو أنها صـدرت عن شاعر أكثر ممارسة لنظم الأغنية ، وأكثر دقة فى اختيار الكلمة الرقيقـــة ، أو لعله كان يمكن أن يأتى بأفضل منها لو وجد تشجيعا لما قام به من محاولة ..

أو لو أنه ظل يعمل فى هذا المجال ولم يتوقف ..

١٩

ويستمع « الشيخ طه حسين » الى بعض الأغنيات التى شاعت فى ذلك العصر ، فيصدم مسمعيه ما فيهـا من العبارات المبتذلة والمعانى المسفة ، فيضيق بهـا ، ويسخط على من يؤدونها ، ومن يستمعون اليها عـلى السـواء •

ثم يحاول أن يعقد موازنة ، بينها وبين نصـوص أخرى جاءت فى كتب الأدب القديم ، فيزداد ضـيقا وسـخطا ••

ثم يرى أن يشرك الناس فيما يعـــانيه من ضيق وسخط ، فيخرج عليهم بمحاضرة طويلة ألقاها بنـادي الموظفين مساء ١٩ من أكتوبر سنة ١٩١١ ، وقد جـاء فى هذه المحاضرة قوله :

« ... اذا صح ما يقولون من أن مقاييس الرقى الأدبى ، لكل أمة من الأمم هى أشعارها وأمثالها وأغانيها لأن الأشعار مرآة النفس ، والأمثال صورة الفـكر ، والاغانى لغة القلوب ، أقول اذا صحت هذه القـاعدة وقسنا رقى العرب فى جاهليتهم بهذه المقاييس الثلاثة، كانت النتيجة مؤلمة جدا ، لأننا لا نســتطيع أن نتردد لحظة واحدة فى الحكم بأن العرب الجاهليين ، الذين لم يؤدبهم أستاذ ، ولم يثقفهـم كتاب ، ولم يصـلح أخلاقهم دين ، أرقى منا نفسا ، وأذكى قلوبا ، وأبعـد منا همما ، وأصدق عزيمة ، والدليل على ذلك سـهل ميسـور ..

تعالوا نقارن بين أشعارنا وأشـعارهم ، وأمثالنا وأمثالهم ، وغنائنا وغنائهم ، ثم نستخلص من هـــذه المقارنة نتيجة الحكم ، فأى الفريقين كانت له النتيجـة

فهو صاحب الغلبة والفوز ، غير أنى أيها السادة ، استحى أن أقارن بين « امـرىء القيس » فى التـــوصل الى حبيبته :

سـموت اليهـا بعـدما نام أهلها
سمو حباب الماء حالا على حـال

فقالت سـباك الله انك فاضـحى
الست ترى السمار والناس أحوالى ؟

فقلت يمـين الله أبرح قاعـــدا
ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى

فأصبحت معشـوقا وأصبح بعلهـا
عليه القتـام سيىء الظن والبـال

يغط غطيط البـكر شـد خنـاقه
ليقتـلنى ، والمـرء ليس بقتـال

أيقتلنى والمشرفى مضـــاجعى
ومسـنونة زرق كأنيـاب أغـوال ؟

أستحى أن أقارن بين هذا الشعر الفخم الـذى يمثل القوة والعزم ، ويظهر قائله مظهر المتسلط القادر

والمسيطر القاهر ، وبين ذلك الغناء المصرى القـــائل

يا لمـــونى يا لمـــونى ياللى فى حبك ظلمونى
يالمـــونى وانا أحب الخص يالمـــونى ولا آكل الخص
يالمـــونى وحبيبى فى مصر يالمونى على مين يجيبولى

قفوا أنفسكم ـ أيها السادة ـ موقف الحـــاكم الفاصل بين الحق والباطل . وحدثونى ..

أى معنى لنداء الليمون فى هذا الغناء ؟

ومن هو الذى ظلم هذا العاشق فى حبه ؟

وما هى العلاقة بين أكل الخص .. وبين الحب ؟

ومن الذى يستطيع أن يكون قوادا لهذا العاشـــق بعد أن قعد به العجز ، وضعف الهمة ، عن أن يصـــل الى أحب حبيب اليه ..

وأكرم كريم عليـــه .. ؟ » (١)

---

(١) المحاضرة بالكامل بمجلة الهداية التى كان يصدرها الشـيخ عبد العزيز جاويش ص ٧٦١ بمجلة سنة ١٩١١ .

٢٠

ذلك جزء من هذه المحاضرة الطويلة التى قد يؤخذ عليه فيها ، ان النماذج التى استشهد بها ، قاصرة على أن تكون سندا جيدا للاستاذ المحاضر ••

فان قصيدة « امرىء القيس » هذه ، لا يمكن أن تقارن ـ حين تقارن ـ بأغنية من أغانى الصالات ، ونحن نعلم أن أغلب دور اللهو العامة ، لا تحفل الا بالغنـــاء الرخيص الذى يثير الغرائز الهابطة ، تأليفا وتلحينا وأداء فكيف نجيز أن يقدم أحد النقاد نصا ، لواحدة من هذه

الأغانى المبتذلة ؛ ليجعلها ندا فى المقارنة لقصيدة من مشهورات « امرىء القيس » ؟ ثم •• من الذى قال ان هذه الأغنية المصرية لرجل ؟

ولم لا تكون أغنية لامرأة ليست مقيمة بالقاهرة فهى تتمنى أن تجد من يحضر لها حبيبها الى حيث تقيم ؟

ونحن نعرف أن كلمة « حبيبى » بالتذكير ، تقال للرجال وللنساء على السواء ، لكنها ــ فى العامية المصرية ــ أقرب الى أن تقولها المرأة ••

ثم ، هل كانت كل أغانى هذه الفترة من الزمن من مثل هذا النموذج الذى عرضه علينا أستاذنا ؟ واذا كانت المسألة مسألة مثالية فى السلوك •• أترانا نرضى للزوجة المصرية ، أن يكون تصرفها مع زوجها كتصرف معشوقة « امرىء القيس » مع زوجها ؟

وهل زادت معشوقة « امرىء القيس » ــ على ضوء ما جاء فى هذه القصيدة ــ عن كونها امرأة مستهترة ؛ أو على الأقل غير أمينة ؟

وأين هذه الزوجة التى تبيح نفسها لطارق بليل ••

من الزوجة المصرية ، المتحببة الى زوجها ، والتى تعبر عن مشاعرها فى الاحتفاظ به ، بهذه الكلمات الدافئة بالدلال وبالحب ، فى هذه الأغنية العامية التى تقول :

ياخوفى من أمك لتدور عليك
لاحطك فى عينى واتكحل عليك
ياخوفى من امك لتدور عليك
لاحطك فى شعرى واضفر عليك

ان أستاذنا « طه حسين » يبدى اعجابه بسلوك الشاعر الجاهلى مع أنه سلوك يتناقض مع المثالية التى تنشدها المجتمعات المتحضرة ، بل لا ترضى بها بعض المجتمعات الجاهلية نفسها ولنستمع الى مثالية الشاعر الجاهلى « عنترة » وهو يقول :

وأغض طرفى ما بدت لى جارتى
حتى يوارى جارتى مأواها

فلم يفخر بأنه يجىء الى معشوقته ليلا متسللا وبعد أن نام الناس كما يفعل اللصوص ويعلم «استاذنا» أن زوج معشوقة « امرىء القيس » كان « لابيده ولا برجله » كما تقول العامة أو على حد قول «امرىء

القيس » نفسه بعد الأبيات التى نقلها « طه حسين » :

وليس بـذى رمـح فيطعننى بـه
وليس بـذى سـيف وليس بنبـال

وقـد علمت سـلمى ، وان كان بعلها
بأن الفتى يهـذى وليس بفعـال

٢١

ولعل احساس « طه حسين » بهبوط مستوى بعض الأغانى المصرية فى معانيها ـ وقتئذ ـ هو الذى دفعه الى هذا الهجوم القاسى عليها .. لعل هذا الاحســاس بالاضافة الى ما قد يكون وجــه اليــه من أسئلة عن تصوره للنص العامى الجيــد الذى يتفق والمســتوى الذى يبتغيه ..

لعل هذا ، أو غيره من أسباب لا ندريها ، أن يكون

هو الذى دفعه الى نظم احدى الأغنيات بالعامية لتكون مثالا يحتذى ــ فى رأيه على الأقل ــ

ولقد أبقت لنا الأيام هذه الأغنية ؛ حيث وجدت ضمن التراث الذى تركه الموسيقار « كامل الخلعى » مسجلة بتلحينه على احدى الاسطوانات ؛ وتقول كلمات هذه الأغنية :

أنا لولاك كنت ملاك
غير مسموح أهوى سواك .. سامحنى

فى العشاق أنا مشتاق
أبكى وأنوح بالأشواق .. صدقنى

عهدك فين نور العين
بالمفتوح .. تهوى اتنين ؟ جاوبنى

أنا أهواك مين قساك ؟
أنا مجروح غايتى رضاك .. واصلنى

ما أحــــلاك وقت رضــــاك
لمــا تلـــــوح ما أبهاك .. (١)؟

ويقول « سامى الكيـــالى » ان أعضاء لجنة الموسيقى بالمجلس الأعلى لرعاية الفنــون والآداب ، وكلهم من كبار الموسيقيين ، وبينهم «مأمون الشناوى» مؤلف الأغانى المعــروف ، كل أولئك قد اجمعوا على أنها من أرق الأغانى التى ظهرت فى الخمسين ســـنة الآخيرة (١) ..

ونحن نسأل القراء ـــ من أهل هـــذا الفن ـــ بدورنا ..

هل اقتنعوا بهذا الاجماع ؟ أم هم فى حـــاجة الى اجماع جـــديد ؟

ثم نسأل مرة أخرى ..

هل اقترب « طه حسين » بهذه الأغنية من هـــدفه الذى كان يرجوه للاغنية المصرية ؟

---

(١) مع طه حسين لسامى الكيالى سلسلة اقرأ صفحة ١٣٩ وهذه المقطوعة الاخيرة بدون قفلة فى الاصل .

ثم هل نستطيع أن نقول انه ربما اقترب خطـوة؟
.. ربما ..

وقبل أن نختتم هذه الفقرة ، نحب أن نثبت هنا أن الأستاذ « عبد الحميد توفيق زكى » ذكر أن « طه حسين » كان قد قد نظم نشيدا وطنيا (١)

غير أنى لم أعثر على هذا النشيد ..

---

(١) الأخبار ٧٥/١/٢٨ باب النقد الذى يحرره البارودى .

٢٢

واطمأن « طه حسين » ــ فى ذلك الوقت ــ الى جودة شعره اطمئنانا جعله ينظر اليه ، على أنه أعــلى مستوى من شعر « عبد الرحمن شـــــكرى » ! أو فى مستواه على الأقل ..

وكان « شكرى » قد أعلن فى مقال له ، « انه لا يرى رأى طه أفندى حسين » فى احدى قضايا الشعر فكان أن رد عليه « طه حسين » بهــذه الأبيات ..

قل لشكرى فقد علا وتمادى
بعض ما أنت فيه يشفى الفؤادا

بعض هذا فأنت فى الشعر و
النثر أديب لا يعجز النقادا

واقتصد فى الغلو ، ان لدينا
ان تسائل بنا نصالا حدادا

خل عنك القريض ، لست بأمضى
فيه سهما ولا بأورى زنادا (١)

فهو فى هذه المقطوعة ينذر « شكرى » بأن عنده نصالا حدادا ، وأنه من الأسلم له ألا يستثيره حتى لا يصوبها الى صدره •

أما أصحابه ، فقد كانوا يرون فى شعره آيات بينات من الاعجاز ، حدث أحدهم ، بأنهم كانوا يتبارون فيما بينهم أحيانا فى أن ينظم كل منهم قصيدة فى موضوع محدد ، ثم يتلاقون فى اليوم التالى فيبدأ

---

(١) الجريدة ٢-١١-١٩١١ •

« طه حسين » فى اسماعهم قصيدته فيزدرون ما نظموه ويطوى كل منهم شعره خجلا ، فلا ينشده بعد هذا الذى استمعوا اليه (١)

روى هذا الأستاذ « أحمد حسن الزيات » خلال خطبة ألقاها فى حفل عام أقيم بمناسبة حصول « طه حسين » على أول دكتوراه من الجامعة المصرية . وقد جاء فى هذه الخطبة أيضا قوله :

« ... استطاع بطلنا أن ينزل الشعر على حكمه، ويروضه لذوقه فصاغ الشعر الحضرى العصرى فى مختلف الأوضاع ؛ لأنه ، وان كان محافظا فى اللغة، فانه حر فى الشعر ؛ رأى ما يثقل الشعر العربى من قيود القافية ، فوقع فى نفسه أن ينفس عنه ؛ فاخترع له الأضرب المختلفة ، والقوافى المتنوعة ، على نحو ما يصنع الأفرنج فى شعرهم ، الا أن شعره أجمل وأكمل لاحتفاظه بالذوق العربى ، والطابع الشرقى ، فأنتم ترون أيها السادة أنه فكر وهو يافع فى تذليل كبرى العقبات فى

---

(١) الجريدة فى ٢٦ ــ ٥ ــ ١٩١٤ .

الشعر العربى ، وهى القافية التى يئن منها عامة شعرائنا؛ ولكنهم يتـــــألمون ولا يتـــكلمون ، أو يتـــكلمون ولا يعملون •• » (١) •

وزاد الأستاذ « الزيات » على هذا فقال « •• ان بداية طه حسين فى الشعر خير من نهاية أكثر الشـــعراء المعاصرين •• » (١)

---

(١) المرجع السابق •

٢٣

وكذلك صنع الشيخ « عبد العزيز جاويش » أحد أعلام الصحافة الكبار ، وأحد أئمة الأدب المرموقين فى ذلك العهد ، اذ قدمه الى مستمعيه فى الحفل السنوى العام ، الذى أقيم فى مدرسة مصطفى كامل ، احتفاء بعيد رأس السنة الهجرية ، على أنه بديل نديد لأحد قطبى الشعر وقتئذ فقال :

« .. لقد غاب حافظ عن احتفالنا هذا العام ،

ولكن ، اذا كان حافظ قد غاب فان شاعرا كبيرا يتقدم اليكم اليوم وهو الشيخ طه حسين » (١) ·

ومن الطريف أن هذا الشاعر الكبير لم يكن — يومئذ — قد تجاوز الحادية والعشرين من عمره ! (٢) ولعل من المفيد أن ننقل هنا من ذكريات « طه حسين » نفسه ما أثبته عن كيفية اشتراكه فى هذا الحفل ، واستقبال الناس اياه ، ذلك اذ يقول ··

« ·· على أن فضل الشيخ عبد العزيز جاويش على الفتى لم يقف عند هذا الحد (حد المران على الكتابة الصحفية والاعداد الصحفى) (٣) وانما تجاوزه فأمعن فى تجاوزه فهو الذى عرف الفتى الى جماهير الناس ، ووقفه بين أيديهم ذات مساء منشدا الشعر ، كما كان يفعل الشعراء المعروفون ، وحافظ منهم خاصة ، فى بعض المناسبات العامة ··

كان الناس قد ألفوا الاحتفال برأس العام الهجرى

---

(١) الهداية ديسمبر ١٩١٠ ·

(٢) ولد طه حسين سنة ١٨٨٩ وكان الحفل سنة ١٩١٠ ·

(٣) مابين المعقوفتين (···) للتوضيح وليس فى الأصل ·

كلما انقضى عام هجرى وأقبل عام جديد ، وكان الشيخ عبد العزيز جاويش يحرص على أن يكون للحزب الوطنى . احتفال بهذا اليوم فأقام حفلة ذات عام فى مدرسة مصطفى كامل ؛ واحتشد لهذا الحفل عدد ضخم من الناس شبابا وكهولا وشيبة : وكان الفتى قد أنشأ فيما بينه وبين نفسه قصيدة يستقبل بها عيد الهجرة وأنشدها أمام الشيخ عبد العزيز جاويش فرضى عنها ، وحثه على أن يقول أمثالها ..

فلما كان هذا الحفل شهده الفتى مع الشاهدين ، ولكنه لم يكد يتخذ مكانه بين الناس ، حتى أقبل من أخذ بيده ، وأجلسه على المنصة ، ولم يقدر الفتى فى نفسه : الا أن الشيخ عبد العزيز جاويش قد أراد أن يرفق به ، ويتلطف له ، ويقربه من مجلسه ، فرضى عن ذلك كل الرضى ، وعده فضلا من الشيخ عظيما ، وألقيت الخطب ، وصفق المصفقون ، ولم يرع الفتى الا أن سمع اسمه يعلن الى الناس ، ورأى نفسه يدعى الى انشاد قصيدته العصماء ، فلبث فى مكانه جامدا واجما ، لا يدرى ماذا يصنع ، ولا يعرف كيف يقول ، ولكن

الذى أخذ بيده ، جذبه جذبا شديدا ، وجعل الذين من حوله يدفعونه ، وينهضونه ، حتى أنهضوه وجروه جرا الى المأدبة ..

واستقبل الفتى بتصفيق شديد منحه قوة وجرأة . فأنشد قصيدته ، فى صوت ثابت ممتلىء ، ولكنه لم يكن يستقر فى موقفه ، وانما كان جسمه يرتعد ارتعادا، واستقبلت قصيدته أحسن استقبال وأروعه حتى خيل الى الفتى أنه أصبح حافظا أو قريبا منه .. » (١)

---

(١) مذكرات طه حسين نشر مجلة الآداب بيروت .

٢٤

وهذه مختارات من قصيدة تحية هــلال العام الهجرى المذكورة .

كن أنت بعد أخيك خير هــلال
وأضىء لمصر سبيل الاســتقلال
وابسم بها بعد العبوس فربمــا
صنع ابتســامك بالرجاء البــالى

كن أنت ميمون المطالع مرسلا
للنيل بالاسعاد والاقبال

أشرق وحدث مصر عن آمالها
ماذا صنعت بهذه الآمال ؟

أمصدق فيك الظنون ، وناظر
للنيل نظرة مانح وصال ؟

ومبدد عن مصر بعض همومها
فلقد أضر بها أخوك الخالى

أغرى الخطوب بها وأمطر أهلها
من ريبهن بوابل هطال

ماذا أقص عليك من آلامنا
هيهات..هل يسع الشكاة مقالى؟

ان الشكاة بمصر جرم مهلك
والنقد مصدر محنة ونكال

من يشك أو يرفع بذلك صوته
فهو المهيج والسفيه الغال

أخذوا على الصحف الطريق وأرهقوا
كتــابها بالضــيم والاذلال
وعدا على التمثيل من غلوائهــم
عــاد ، فآذن ظلهــم بــزوال
نقموا من التمثيل نطق ممثــل
فيــه بلفظــة كامل وكمــال
فاهتــاج هائجهم عليه وأغلقــوا
أبوابه مــن غــير ما امهــال
سل ان أردت النيل عن آلامنــا
تسمع لديه جواب كل سـؤال
وانظر فحولى لو بدا لك معشر
تــرمى الى لحــاظهم بنبــال
يتلمســـون بكل بيت هفــوة
ويؤولون برأيهــم أقــوالى
انى لأكتمك الحــديث تحفظــا
وأرى السكوت على الأذى أولى لى
فلقد تكون قصــيدتى كوسيلة
بينى وبين السـجن والأغلال

مـالى ومـا للبـدر أطلب رده
بل مالأفـلاك السـماء ومالى ؟
منا بليتنـا وفينـا برؤهـا
لولا اختلاف الرأى والاميـال
نرجو الرقى وكيف ترقى أمـة
سلكت سبيل التيه والاضـلال
عبثت بحـق الأمهـات وأغفلت
أمـر الأمومـة أيمـا اغفـال
لم تربهن فكن مصـدر شـقوة
فيهـا ، وداء للبنين عضـال
ساد الذين عنوا بأمر نسـائهم
وسموا بهن الى مـكان عـال
أنى تـكون الصـالحات لأمـة
رغب الغنى بهـا عن الأفضـال
لادر در المـال ان لـم يدخـر
لبنـاء مكرمة وحسـن فعـال
لادر در المـال ان لـم يدخـر
الا لذات الطـوق والخلخـال

لادر در المـال ان لـم يدخـر
الا لنيـل مـراتب الاجـلال

شـبان مصر لـكم أزف تحيتى
والى حميتكم أسـوق مقـالى
أحيـوا العـلوم فلا حياة لأمة
ألقت أزمتهـا الى الجهـال
كونوا لمصر كما تـؤمل فيـكم
ذخـر الزمان وبهجـة الآمـال
أزهار نهضتهـا وانجم سـعدها
وجمـالها المـزرى بكل جمـال
القائمين لها على رغم العـدا
بالمكرمات وصـالح الأعمـال
لا زال جيلكمو لمصر بهـاءها
وعلاءها الباقى على الأجيال (١)

---

(١) مجلة الهداية عدد ديسمبر ١٩١٠ = طه حسين لمحمد سيد كيلانى = مع طه حسين لسامى الكيالى والعدد الخاص الذى اصـدرته مجلة الادب عن طه حسين (والقصيدة كاملة فيهم جميعا) .

ويرى « سامى الكيالى » أن هذه القصيدة « تعتبر وثيقة من وثائق الأدب القومى ؛ نظمها طالب أزهرى متحمس ؛ أصبح له فى يومنا هذا أضخم شأن فى تاريخنا المعاصر .. » (١)

وكذلك صنع الأستاذ « محمد سيد كيلانى » وهو من أوائل الذين كتبوا باسهاب عن طه حسين .. شاعرا

(١) مع طه حسين للكيالى ص ١٣٥ .

وعلى الرغم من انه فى كتابه (طه حسين • الكاتب الشاعر) يحمل حملة شعواء عليه وعلى أدبه وشعره ؛ الا أنه اختص هذه القصيدة بتقديره فقال « •• وتعتبر قصيدته التى نظمها فى الاحتفال بالعام الهجرى ١٣٢٩ من أروع ما نظم فقد اجتمعت فيها كل عناصر الاجادة: من المشاعر الوطنية المتدفقة الى حسن الصياغة ومتانة التراكيب وبلاغة التعبير والموسيقى الشعرية •• » (١)

لكن الأستاذ « مصطفى صادق الرافعى » اختار منها بعض الأبيات التى رأى أنها واضحة الركاكة ، واتخذها مثالا على ضعف القصيدة كلها ؛ ثم عبر عن سخطه على صاحبها ، بصبه سخريته البالغة على القصيدة ، وقد لجأ فى بداية مقالته الى « التريقة » على « طه حسين » وذلك باستعماله أسلوب المدح المقصود به الذم فقال « •• وقد كان أحد أصدقاء طه يجادلنا فيه ذات يوم ، فرد علينا ما وصفناه به ، من أنه لاحظ ، له فى الشعر ، ولا يد له فيه وقال ان له

(١) طه حسين الشاعر الكاتب لمحمد سيد كيلانى ص ٤٤ •

يدا ، ورجلا ، وانه غير منسلخ من الشعر بل هو فى جلد اشاعرين معا ، وانه قد انبثت خواطره فى كل معنى؛ وافتتح للناس طريقة الأدب الحديث التى جمع فيها بين بلاغة اليونان والفرنسيس والعرب ، فذهب فى شعره بمحاسن هذه الأمم الثلاث ، ودلنا على أبيـات كان نظمها فى استقبال العام الهجرى ، وقال انها نشرت فى بعض أعداد المقطم من زمن (١) فكتبنا الى من جاءنا بها ، فما فيها الا المعنى البكر ، والأسلوب النادر ، واللفظ الموسيقى ، وفيها الحلاوة والطلاوة ، ولها رفيف؛ وعليها ماء ، حتى لو تليت على شجرة جافة لأخضرت ، ثم هى بعد ، آية فى الدلالة على القريحة الصـافية ، والبلاغة المتمكنة والطبع البدوى السلس الرقيق، الذى عرفه هو فى كتابه ، بأنه يعرض عن تكرار الحروف ، فقال لافض فوه ،وبتعبير المذهب الجديد (لا أحوجه الله الى تركيب أسنان) .. » (٢)

ثم عرض « الرافعى » للقصيدة عرضا غير أمين ،

---

(١) سنعلق على هذه الفكرة فيمابعد .

(٢) تحت راية القرآن للرافعى ص ٢٤٩ وما بعدها .

اذ انتزع منها خمسة أبيـات غير متجاورة ، هى فى الأصل الثامن والعشرون والرابع والخامس والسادس بعد الأربعين ، والخمسون ، ذلك لأنه وجد فى هـذه الأبيات بهذا الشكل ، الثغرات التى يستطيع أن ينفذ منها سهامه ، وليس هذا من قواعد النقد السليم وهذه هى الأبيات الخمسة بحسب ترتيب الناقد :

مالى و (ما) للبدر أطلب رده (كذا)

بل ما لأفلاك السماء ومالى ؟

لادر ، در المـال ان لم يدخر

لبناء مكرمة وحسـن فعـال

لادر ، در المـال ان لم يدخر

الا لذات الطوق والخلخـال

لادر ، در المـال ان لم يدخر

الا لنيـل مـراتب الاجـلال

والأغنيـاء على الملاهى عكف

صرعى الملاحظ والهوى الختال

وقبل أن نتابع الناقد نقول انه أثبت الشطرة الأولى من المقطوعة بالشكل الذى أوردناها به هنا أى ساقطة كلمة (ما) وزائدة كلمة (كذا) وعلق على ذلك فى الهامش بما معناه هكذا وجدت ناقصة ما وبهذا يختل الوزن ، واستدرك فقال انه ربما سقطت (ما) وكتب كلمة (كذا) ليدل على انه لا ذنب له فى هذه الكلمة الناقصة ، وفى هذا الأسلوب من النقد تعسف واضح ، وبعد هذه الأبيات التى أوردناها عقب الناقد فقال :

« .. لا ريب عندنا ان هذه الأبيات من قصيدة طويلة ، ذهبت بقيتها فى احدى الزلازل ، لأنه بعد هذا الشعر لا يكون الا الرجم وانقضاض الشهب وتمزق الأرض ، أفلا ترون الشيخ يقول (بل مالأفلاك السماء ومالى ؟) .

فهذا نذير بأنها توشك أن تنقض عليه وتتبعه شهابا رصدا ...

وتأمل البيت الرابع فانه من فرط سموه وابداع معناه ، والتعمق فيه قد فسد ، فان الشاعر يلعن المال

ان لم يدخر الا لنيل مراتب الاجلال فهل مراتب الاجلال الا العلا والمكارم ؟ وهل يدخر المال الا لهذا ؟ أم تكون المراتب هى الرتب والنياشين ؟ واذن فما كلمة الاجلال الا سو آخر لافساد المعنى ؛ اذ أن رتب الاجلال ، هى رتب العظماء فى كل أمة . فيا صاحب السمو ، ان كان ذلك شعرك ؛ فقد سلمنا لك ما تدعى من أن الكثرة المطلقة فى الشعر الجاهلى منحولة انى والله أستحى لطه حسين أن يكون هذا شعره ؛ ثم يتكلم فى الشعر فان هذا الكلام الركيك ؛ ما فصل عن نفسه ، الا وبينهما شبه فى الغلظة والاضطراب والتمزق .. » (١)

الى آخر هذا الحديث الذى جاء كله من هـذا الطراز فى الاقذاع والتجنى ومن المعروف أن « طه حسين » قال هذه القصيدة سـنة ١٩١٠ وأن الأستاذ الرافعى لم يتناولها بالنقد الا من خلال رده على كتاب « فى الشعر الجاهلى » أى بعد سنة ١٩٢٦ فأين كان خلال هذه المدة ؟ ونحن نعلم أنه قد ثار بينهما نقـد شديد على صفحات « الجريدة » سنة ١٩١٣ يوم ان

(١) المرجع السابق .

قام « طه حسين » بنقد قصيدة « حافظ ابراهيم » التى نظمها فى تقريظ كتاب « حديث القمر » للرافعى . فلماذا لم يتذكر هذه القصيدة وقتئذ ؟ على أن الذى لفت نظرنا أيضا فى هذه المقالة قول « الرافعى » عنها انها نشرت فى جريدة « المقطم » ولم يقل لنا عن تاريخ النشر، والخبر بهذه الصورة يستحق التعليق، ذلك لأن «المقطم» كما هو معروف، كانت اللسان العربى للمحتل البريطانى، ولم تكن قصيدة « طه حسين » فى جانب الاحتلال بحال كما اننا نعرف مدى عداوة الشيخ « جاويش » للاحتلال وللمقطم بالذات التى هاجمها بمقالين فى نفس العام جاء فى احدهما « لقد أقام فينا أصحاب المقطم السنين الطوال فكانوا حجاج بيت اللورد كرومر الحرام يتعبدون بطوافه » وجاء فى الثانى « .. الا فليخرس المقطم فانه أحقر عند الأمة من أن تلقى له بالا أو تقيم لحماسته وزنا .. » فهل ينشر « طه حسين » تلميذ « جاويش » قصيدته الوطنية هذه بالمقطم ؟ انها وصمة وهمية يريد « الرافعى » أن يلصقها به والسلام ، وقد كانت هذه الطرق منهج أغلب النقاد فى هذه الفترة من الزمن ...

٢٦

ولقد كان الشيخ « عبد العزيز جاويش » يمثل في كتابته ، قمة الانفعال الوطني والديني ، وكان أسلوبه ـ تبعا لذلك ـ شديد القسوة على خصومه ، فهو حاد المقاطع ، ناري الكلمات ، صارخ التعبير ...

وكان قد كتب مقالا في جريدة اللواء يوم ٢٨ يونيو ١٩٠٩ بمناسبة الذكرى السنوية لمأساة «دنشواي» جاء فيه قوله :

« .. سلام على أولئك الذين كانوا فى ديارهم آمنين مطمئنين ، فنزل بهم جيش الشؤم والعدوان ، فأزعج نفوسهم ، وأحرق حصادهم فلما هموا بصيانة أرزاقهم ، التى عملوا فى سبيلها بأجسامهم ، ودابتهم وأرضهم ، قيل انهم مجرمون ، فسيقوا فى السلاسل والأغلال ثم صـــلبوا على مرأى ومسمع من زوجاتهم وأمهاتهم وبناتهم وعيالهم وأصدقائهم وجيرانهم .

سلام على تلك الأرواح التى انتزعها بطرس غالى رئيس المحكمة المخصوصة من مكانها فى أجسامهم ، كما تنتزع السلوك الحرير من خلال الشوك ، قبضها بيده ، فقدمها قربانا الى ذلك الجبار الظالم (١) الغاصب القاهر ، القائم فى بلادنا بنفاقنا وضعة مقاصدنا ، المستبد بالأمر فينا ، بسبب تفرقنا ، وضعف المسيطر علينا بسبب (ناس منا) (٢) يخشون الانجليز ، أكثر مما يخشون

---

(١) يقصد اللورد كرومر معتمد بريطانيـــا فى مصر وقت وقوع الحادث .

(٢) ما بين المعقوفتين (...) كلمة غير واضـحة فى الأصـل يوجبها السياق .

الله ، ويرغبون فى المال والترقيات ، ولو شقيت فى سبيل ذلك بلادهم ، واستبيحت حرماتهم ...

سلام على الذين وقف هلباوى بك (١) فثار فيهم ثوران الجبارين ، ثم انثنى على رقابهم فقضمها ، وعلى أجسامهم فمزقها ، وعلى دمائهم فأرسلها تجرى على الأرض ، تلعن الظالمين ، وتتوعد الآثمين ...

نعم قام هلباوى بك مقامه المشهود ، وطلب من قضاة تلك المحكمة الظالمة ، أن يحشر أهل دنشواى ، فيقدموا الى هيكل الاحتلال ، الذى هو معبد الخائنين ، وقرة أعين المارقين ، فما لبث رئيس المحكمة ، وزميله قاضى دنشواى ، فتحى زغلول باشا (٢) أن استرهبتهما

---

(١) ابراهيم الهلباوى المحامى وكان يشغل وظيفة النائب العمومى وقتئذ ، وقد سجل حافظ ابراهيم موقفه فى قضية دنشواى هذه فى قصيدته التى نظمها بهذه المناسبة . ومما جاء فيها قوله موجها الخطاب له :

أنت جلادنا فلا تنس انا   قد لبسنا على يديك الحدادا

(٢) فتحى زغلول باشا أخو سعد زغلول الزعيم المعروف وكان الانجليز قد رقوه وكيلا لوزارة الحقانية (العدل) جزاء له على موقفه وقد أشار الى ذلك أحمد شوقى فى قصيدته الى لورد كرومر بقوله :

أم من صيانتك القضاء بمصر أن   تأتى بقاضى دنشواى وكيلا ؟

عظمة الاحتلال ، فأنطقتهما بذلك الحكم الجائر : لقد اجترأ هلباوى بك على الجهر بها (يقصد الاتهامات) وقدرت يده على تسطيرها ، وهو يعلم أن حظها من الصحة كحظه من الوطنية ... »

٢٧

وكان أن قدمت النيـــابة العامة الشـــيخ « عبد العزيز جاويش » الى المحاكمة ، وجاء فى قرار النيابة « انه نسب الى عطوفة الباشـــا رئيس مجلس النظار انتزاع أرواح بريئـــة بقضـــائه ، ليقدمها قربانا للورد كرومر والطعن فى عطوفة الباشا ، وسعادة فتحى باشا ، بأن الذى انطقهما بهذا الحـــكم الجائر ، هو رغبتهما فى المناصب ، ورهبتهما من عظمة الاحتلال ، وغير ذلك من

ألفاظ السباب والفحش ، كرميهم بخيانة بلادهم ، وبيعهم ذممهم .. » (١)

وكان ان حكمت المحكمة بسجن «الشيخ جاويش» ثلاثة أشهر فاستقبلت الجماهير ذلك الحكم بأسوأ استقبال ، وانهالت البرقيات بالاحتجاج ، التى استمرت أياما تغطى أعمدة صحف الحزب الوطنى ، وكذلك قصائد الشعراء ...

وأتم « الشيخ أشهره الثلاثة بالسجن ، ثم أخرج منه بليل حتى لا تستقبله الجماهير ، التى احتفلت ــ بعد ذلك ــ بتكريمه فى فندق « شبرد » حيث قدمت اليه « الوسام الوطنى » وهو وسام من الذهب اشتركت فى تقديمه طوائف من الشعب ، أنابت عنها الأستاذ « أحمد لطفى » وكيل الحزب الوطنى فى تقديمه اليه ، وتقلد « الشيخ » الوسام وهو يقول :

« اننى لا أتلقى الوسام لأنه من الذهب ، بل لأنه كرامة ..

---

(١) ص ٩٦ : ٩٧ من كتاب عبد العزيز جاويش لأنور الجندى « أعلام العرب »

ولا يأبى الكرامة الا لئيم » (١)

وتقدم الشعراء بقصائدهم فى تهنئة « الشيخ » ومن بين هذه القصائد تهمنا قصيدة «الشيخ طه حسين» التى نختار منها قوله :

الآن حــــق لك الثناء فلتحى وليحيى اللواء
ولتحى مصر وأهلها شاء العدا أو لم يشاءوا
تعلو بهـــا أصــــواتنا حتى ترددها الســــماء
ندعو بها حتى يصـــم الكارهين لها الدعاء
هم يحرقون وتســـتفزهم الضغينة والعـــداء
فلتأكل البغضـــاء قلبهمو فذاك لنـــا شـــفاء
ماضرنا كمد العـــدو اذا أتيح لنـــا الهنـــاء
ان كان ذكرك للجلاء يسوء فليكن الجـــلاء
أو كان صوت الشعب عندهمو هو الداء العياء
فليعل صوت الشعب حتى يرجعوا من حيث جاءوا
قد علمونا أن شـــدتنا لشـــــدتهم •• دواء
••• دلوا بقوتهم وأعماهم من الطغوى غشـــــاء

(١) ص ٩٦ ــ ٩٧ من كتاب عبد العزيز جاويش لأنور الجندى (أعلام العرب) •

... سيرون اذ تبدو الحقيقة أن قوتهم هبـــاء

... لم يسجنوك وانما ردوا الأموز كما تشـــاء

ما ان أصابتك الاساءة بل لأنفسهم أســاءوا

لو يعلم السجن الذى قد كان فيه لك الثواء

من ذا يقيم بـه لكان له بمثـواك ازدهاء

لم لا وأنت لسـان مصر اذا ألح بهـا المراء

تدعو لها ويذود عنها صدق عزمك والمضاء(١)

---

(١) مصر الفتاه ١/١١/١٩٠٩ وطه حسين لكيلانى ٥ ـ ٦٢ ومجلة الأدب العدد الخاص بطه حسين .

٢٨

ويشتد الصراع بين « طه حسين » الفتى الأزهرى المتمرد على أزهريته ، وبين عدد من قادة الحركة الأدبية والفكرية وقتئذ ونكتفى بالاشارة الى علمين من هؤلاء الأعلام ، أما أولهما فالأديب الأستاذ « مصطفى لطفى المنفلوطى » الذى هاجمه « طه حسين » هجوما عنيفا ، ومزق « نظراته » (١) تمزيقا ، لعله يصل على أكتافه الى الشهرة التى يبتغيها ، بغير أن يكون معه من الحق،

(١) كتاب النظرات من الكتب المشهورة للمنفلوطى .

ما يساعده على القيام بذلك الهجوم والانتصار فيه ، وقد وجه أحد الصحفيين ـ بعد أربعين سنة من هذا الهجوم ـ سؤالا الى « طه حسين » عن سر هذه الحملة، فكان أن أجابه بكل بساطة وهو يبتسم « لقد كنت شابا يريد الشهرة على حساب كاتب معروف » (١)

وأما الثانى فهو الكاتب الدينى « السيد الشيخ محمد رشيد رضا » صاحب مجلة « المنار » المعروفة ، الذى أعلن عليه « طه حسين » حربا شعواء تحرق الأخضر واليابس كما يقولون ، ولعله فى هذا الهجوم كان مصيبا ، فقد قيل ـ والعهدة هنا على الرواة ـ ان الشيخ « محمد رشيد رضا » كان قد كتب مقالا من مقالاته جرت يده فيه بهذه الكلمات الجامحة « .. ان كل من قرأ النبذ التى كتبناها ، كاد لا يميز بينها وبين ما فيها من آيات القرآن لولا الحفظ .. » (٢) ومعنى ذلك ـ ان صحت هذه الرواية ـ ان « الشيخ رشيد »

(١) مع طه حسين لسامى الكيالى ص ١٤١ .

(٢) ص ١٤١ مع طه حسين لسامى الكيالى غير أنه لم يذكر لنا المصدر الذى جاء فيه هذا الكلام لرشيد وكذلك لم يقل طه حسين فى رده أين نشر رشيد هذا الكلام حتى نتحقق منه .

يقول انه لا فرق بين ما يكتبه هو وبين القرآن ، غير أن النـاس يحفظون القرآن ، وبهـذا الحفظ فقط ، يستطيعون تمييزه عن كلام « الشيخ رشيد » ! ، وهو قول فيه كفر واضح فيما يرى المسلمون على اختلاف مذاهبهم ..

فكان أن جرد « طه حسين » قلمه ــ وقد وجد هذه الثغرة ــ التى يستطيع أن يصل الى رشيد منها ، ورد ردا عنيفا جاء فيه « .. الآن وقد زعم رشيد أنه سامى ربه ، وأتى بمثل كتابه ، أترى فى القرآن مثل هذا الطبع البـارد ؟ والانعكاس الفـاتر ؟ والاضافات المتتابعة ؟ ثم ألا تشعر بعد ذلك بالسرقة من هذا الكتاب الذى تجاريه » (١) ؟

ولقد أغرى « طه حسين » بمهاجمة «رشيد رضا» أنه كانت هناك خصومة بالغة بين الشيخين « رشيد وجاويش » وأن « رشيد » يعتقد أن « جاويش » أنشأ مجلته « الهداية » ليناوىء بها مجلة « المنار » أما « جاويش » فكان يرى فى « الشيخ رشيد » أنه

لم يكن داعيا الى الله ، بل الى نفسه ، وأنه يتخذ الدعوة الى دين الله سبيلا الى الشهرة ، وسلما الى الصيت .. » (١)

وكان الشيخ « رشيد » يتهم الشيخ « جاويش » بأنه لا يصلح للحديث عن الدين وأنه « .. لا عبرة بكلام الشيخ جاويش فى انكار حديث نبوى ولا فى اثباته ، فانه ليس له فى علم الحديث شيء ، وهو جريء على القول فى الدين بالهوى والرأى ، حتى أنه أنكر بعض أحاديث الصحيحين بغير علم فهو ينكر ما لا يوافق عقله ورأيه .. » (٢)

ذلك رأى كل من الشيخين فى الآخر ، نقلناه حتى يتبين الدافع الذى حرك « طه حسين » للهجوم على « رشيد » مناصرة لأستاذه « جاويش » .

ثم ألقى على النار وقود جديد ..

ذلك ان الشيخ « رشيد رضا » كان قد دعا طائفة من أصدقائه المشايخ وغير المشايخ ؛ وعلى رأسهم جميعا

---

(١) ص ١١٣ عبد العزيز جاويش لأنور الجندى .

(٢) المرجع السابق .

شيخ الأزهر : الى مأدبة عشاء بفندق « سافواى » بالقاهرة ...

وقالوا — والعهدة هنا أيضا على الرواة — (١) ان زجاجات من الخمر ، قد وزعت على المدعوين ، وقال بعض الذين يحسنون الظن بالمدعوين وبالداعى أيضا : انه لم تكن هناك الا زجاجات المياه الغازية وانها هى التى أحدثت الفرقعة التى سمعت عند فتحها ...

وقيل أيضا ، ان شيخ الأزهر الموجود فى الحفل، لم يثر على المنكر . ولم يخرج من الحفل احتجاجا عليه، وذلك أضعف الايمان ، أو هكذا يقول الذين يقفون من هؤلاء المشايخ الموقف الذى يسليه سوء الظن ...

وأيا كانت الحقيقة فى هذه الواقعة . فان الشيخ « طه حسين » اغتنم الفرصة التى سنحت للانتقام من شيخ الأزهر اقاء ما اعتبره اهانة له ولزميليه ولشيخه « المرصفى » وقد بينا ظروف هذه القصص فيما أسلفنا من قول ..

---

(١) مع طه حسين لسامى الكيالى ص ١٤١ وما بعدها . مذكرات طه حسين ص ٤٣ والايام جـ ٣ ص ١٣ طبعة ثانية .

(راجع الفصلات ١٠ و ١٢ من هذا الكتاب)

وكان أن نظم أبياتا ثلاثة سخر فيها بالشيخ «رشيد» وضيوفه ، سخرية بالغة بالنسبة لمساسها بشيخ الأزهر وسرعان ما تلقفها أستاذه الشيخ « جاويش » ونشرها بجريدة « العلم » (١)

أما هذه الأبيات فتقول :

رعى الله المشـــايخ اذ توافـوا
الى « سافواى » فى يوم الخميس

واذ شـهدوا كؤوس الخمر صرفا
تدور بها السـقاة على الجـلوس

رئيس المسـلمين عـداك ذام
ألا للـه درك مـن رئيس (١)

(١) المراجع السابقة •

٢٩

ويشير « طه حسين » الى هذا الصراع الذى دار بينه وبين « رشيد رضا » فيقول وكأنما يلقى من على كاهله أوزار ماض مرير ..

« .. ولم تخل (الهداية) من جدال عنيف ، دفع اليه الفتى دفعا ، وكان خصمه الشيخ رشيد رضا ، وقد أسرف الفتي على نفسه ، وعلى الشيخ رشيد فى ذلك الجدال ، وكتب أحاديث اســتحى منها فيما بعد حين ذكرت له ، ولكن الشيخ عبد العزيز كان عنها راضيا ،

وبها كلفا ، وقد أجاز نشرها ، وشجع الفتى على المضى فيها ، وكان يمقت من الشيخ رشيد ممالأته للخديو ، وانحرافه عن طريق الأستاذ الامام ، وما دفع اليه من اعجاب بنفسه ، واغترار بثنـاء الناس عليه واعجابهم به .. » (١)

ولست أدرى ان كان اتهام « طه حسين » «لرشيد رضا» صحيحا ، أم هو قريب من الصحة ، أم هو مجرد ادعاء ، وبخاصة اذا حاولنا تحليل بعض الملابسات التى تمس شخصية « الشيخ رشيد » مسا رقيقا ، ولذلك سنكتفى هنا ـ لضيق المجال ـ بنموذج واحد ، أو هو فى الواقع حادث واحد أجراه الشـيخ « رشـيد » سنحاول استقراءه استقراء خفيفا ، لعلنا نصل الى شىء يمكن أن يلقى بعض الضوء على شخصية « الشيخ رشيد » .

ذلك ان « الشيخ رشيد » روى فى الجزء الأول من تاريخه عن الأستاذ « الامام محمد عبده » (٢)

---

(١) المراجع السابقة .
(٢) ص ١٠٢٦ .

انه سمع من الأستاذ الامام وهو فى الساعات الأخيرة من حياته أبياتا من الشعر نظمها الشيخ الامام بنفسه ، وسمعها معه السادة مصطفى الباجورى وحمودة عبده أخو الأستاذ الامام وأحمد المحمصانى ، وكتبوها عنه مشافهة ، وهذه الأبيات تقول :

ولست أبالى أن يقال محمد
أبل أم اكتظت عليه المآتم

ولكن دينا قد أردت صلاحه
أحاذر أن تقضى عليه العمائم

وللناس آمال يرجون نيلها
اذا مت ماتت واضمحلت عزائم

فيارب ان قدرت رجعى قريبة
الى عالم الأرواح وانفض خاتم

فبارك على الاسلام وارزقه مرشدا
رشيد يضىء النهج والليل قاتم

يماثلنى نطقا وعلما وحكمة
ويشبه نهى السيف والسيف صارم

ويخـــرج وحى الله للنـــــاس عاريا
عن الرأى والتـــأويل يهـــدى ويلهم

والناظر فى هذه الأبيات يلحظ فى البيت الخامس منها تصريحا واضحا بتولية « رشـــيد » من بعده أمر دعوته ، وقد ذكر اسم « رشيد » بصراحة واضحة ، وأنه سيكون المرشد بعده ، بل ذكر « الشيخ رشـــيد » فى مقالته ان الشيخ « عبد الرحيم الدمرداش » حينما سمع هذه الأبيات من الأستاذ الامام ــ وكان حاضرا ــ داعب الأستاذ الامام بقوله :

« أنا أشتغل ليلا ونهارا بخدمتك وتكبيس رجليك

(ثم ذكر كلمة دعابية أخرى) ثم توحى للشـــيخ رشيد وتجعله خليفة لك ؟ ياضيعة الخدمة .. » !!

لكن الذى يتأمل البيت السابع من القصيدة وفيه تكملة الصفات التى ينبغى أن تتوافر فيمن سيقوم بالدعوة بعد الأستاذ الامام ، سوف يلحظ أن فى سناء تأسيس قافيته ضعفا لا يتفق مع ما هو واضح من مقدرة ناظم الأبيات السابقة عليه ، وهذا أول مغمز فيها ...

ثم يبدأ أول ظل من الشك اذا عرفنا ان الشيخ « رشيد » لم ينشر هذا الكلام ، الا بعد مضى مدة طالت حتى تجاوزت السنة أشهر من وفاة الأستاذ الامام (١) •

ثم تكون المفاجأة اذا علمنا أن الأبيات الخمسة الأولى ليست من نظم « الشيخ محمد عبده » وانما نظمها شاعر مغربى هو أبو عبد الله محمد بن أحمد اكنوس المراكشى المتوفى سنة ١٨٧٧ أى قبل وفاة الأستاذ الامام بثمانية وعشرين عاما (١) ثم تكون المفاجأة أكثر مفاجأة اذا عرفنا ان البيتين السادس والسابع هما زيادة ليست فى الأصل الذى نظمه الشاعر المغربى وانما تنفرد بها رواية الشيخ « رشيد » مما جعل بعض الأصابع تشير اليه متهمة اياه بوضعها •••

أما لحساب من •• فهذا مما لا يحتاج الى تفسير هذا ويمكن مراجعة هذا الموضوع بافاضة فى مقال للأستاذ « محمد عبد الغنى حسن » نشره بمجلة «الأديب»

---

(١) المنار مجلد ٨ ص ٩٠٠ •

(٢) كان يمكن أن يقال ان الشيخ الامام تمثل ساعتها بهذه الابيات لولا الكيفية والظروف التى أحاطت بنشرها •

البيروتية (١) كما يمكن مراجعة محاولة «الشيخ رشيد» تأكيده اثبات هذه القصيدة « لمحمد عبده » فى كتاب « الشيخ الدكتور أحمد الشرباصى » عن الشيخ « رشيد رضا » (٢) •

تلك اشارة الى بعض ألوان الصراع الذى كان قائما وقتئذ فى القاهرة ، وكان « طه حسين » واحدا ممن يبذلون طاقتهم كلها فى سبيل الظهور على سطح دوامته، حتى لا يبتاعهم اليم ، ونحن هنا نكتفى بهذه الاشارة • تاركين لمن يريد التعمق أن يرجع الى مظانه ، فى صحف ومجلات ذلك العصر •

---

(١) ص ٢٠ من عدد أكتوبر ١٩٦٢ والاعداد التى بعـــده لكتاب آخرين •

(٢) ص ٢٦٣ فى كتابه الكبير عنه (غير كتابه الذى صـــدر فى سلسلة أعلام العرب) •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣٠

وفى أكتوبر من سنة ١٩٠٩ تقدمت شركة « قناة السويس » بمشروع يمد امتيازها أربعين عاما من سنة ١٩٦٨ حتى سـنة ٢٠٠٨ فى مقـابل أربعة ملايين من الجنيهات ؛ قيل ان الحـكومة المصرية كانت فى حاجة اليهم ؛ وكان المشروع قد ظل طى الخفاء لمدة سنة ، منذ أن صاغه المستشار البريطانى « مستر بول هارفى » ، وكان فى عزم وزارة « بطرس غالى باشا » انفاذه بسرعة حتى لا يزعجها احتجاج الصحف الوطنية ، لكن « محمد

فريد » زعيم الحزب الوطنى وقتئذ ، تمكن من الحصول على نسخة من المشروع فى أكتوبر ١٩٠٩ فبادر ونشرها فى جريدة « اللواء » ، ثم تبعها ببيان أسرار المشروع وأسبابه ، ومبلغ الغبن الذى سيصيب « مصر » من وراء تنفيذه ...

وكان نداؤه صيحة الخطر التى استجابت لها البلاد فى هذه المسألة ؛ فقامت بطوائفها وصحفها تنادى بوجوب عرض المشروع على الجمعية العمومية قبل البت فيه (برغم أن رأى الجمعية العمومية فى ذلك الوقت كان استشاريا) ، وكان أن بذلت الحكومة ورئيسها «بطرس باشا غالى » أقصى ما تستطيع من المساعى لحمل أعضاء الجمعية على قبول المشروع ، حتى تعطى له الصفة الشرعية ، فلجأت الى الوعود تارة ، والى الوعيد تارة أخرى ، ونشر « الأمير حسين كامل » (السلطان فيما بعد) رئيس الجمعية حديثا أيد فيه المشروع ، كما دافع « سعد زغلول » (زعيم مصر فيما بعد) دفاع المستميت فى سبيل مرور هذا المشروع بسلام ، والتصديق عليه من الجمعية ...

لكن رد الفعل الذى حدث من جانب الأمة كان عنيفا اذ قام « ابراهيم الوردانى » وهو أحد أفراد الحزب الوطنى باغتيال « بطرس غالى باشا » باعتبـاره رئيسا للحكومة التى تحاول أن تنفذ المشروع بأى وسيلة ...

وتألفت الوزارة الجديدة برئاسـة « محمد سعيد باشا » ، وكان أول عمل له بالنسبة لهذا المشروع ، انه جعـل رأى الجمعية العمومية ـ فى تنفيذ المشروع أو عدمه ـ قاطعا وليس استشاريا ، وبذلك ، أصبح الحكم على هذا المشروع فى يد الجمعية ...

وكان أن قضت الجمعية برفض المشروع ، وكان رفضها هذا باجماع الأصوات ، ما عدا مرقص سميكة والوزراء ...

ولقد أدى الشعراء الوطنيون واجبهم بشرف ، فى هذه المعركة ، فاستمعنا الى بعضهم وهو يشير الى البلاء المنتظر من تنفيذ هذا المشروع : خلال ما نظم من قصائد فى اسـتقبال عيد العـام الهجرى ، وعلى رأس هؤلاء « حافظ ابراهيم » و« ايليا أبو ماضى » كما نظم بعضهم

قصائد قائمة بذاتها فى رفض هذا المشروع رفضا باتا وتحذير الأمة من شره وقد انتشرت هذه القصائد على صفحات كثيرة من الدواوين الشعرية الصادرة فى ذلك العهد ...

٣١

وكان من بين هؤلاء الشعراء الشيخ « طه حسين » الذى شارك بقصيدة خاصة فى التحذير من هذا المشروع بعد أن شارك بأبيات أخرى ضمن قصيدته التى حيا فيها هلال العام الهجرى ١٣٣٩ ومن القصيدة الخاصة نختار هذه الأبيات :

يقول فى مطلعها مخاطبا للانجليز :

تيمموا غير وادى النيل وانتجعوا
فليس فى مصر للأطمـــاع متسع

كفوا مطامعكم عنا .. أليس لكم
مما جنيتم وما تجنـونه شبع ؟

« تسع وخمسون » (١) كم فيهن من نشب
لو فيـــكم بالكثير الجمـــع مقتنـــع

يا للكنـــانة من منـــكود طالعهـــا
ومـــا يجـــر عليهـــا النوم والطمع

من مثـــل أبنـــائها فى سـوء صفقتهم
منها اذا ما اجتنوا من عزمهم وزعوا (٢)

هم الذين ابتنـــوا بالأمس واحتفـــروا
فما لهـــم ان أرادوا حقهـــم دفعوا ؟

لا يصـــنع الله للمســـتعمرين فـــكم
يلقى بنـــو النيـــل من جـــراء ما صـــنعوا

أكلمـــــا جـــاع غـــربى تيممنـــا
حتى اذا اكتظ أغـــراهم بنـــا الشـــبع ؟

---

(١) يقول انه لا تزال هناك تسع وخمسون سنة باقية على انتهاء المدة الرسمية وتقتنذ للقناة ، ألا تكفى هذه المدة ليجمعوا فيها مايريدون من أسلاب .

(٢) وزعوا بضم الواو أى منعوا .

لا جـــاد ؛ مصر ، حيـا ، لا أخصبت أبدا
فحظ أبنائهـا من خصـــبها الضـرع (١)

يا نيـــل ان سـغت للمستعمرين ولـم
تطب لأبنـــائك العـلات والجرع (٢)

فـلا جـــريت ولا رويـت ذا ظمــــأ
ولا أمـــدك غيث واكـف هـسـع (٣)

الـــذنب ذنب بني مصر فانهـــمو
هم الـذين اذا ما استخضعوا خضعوا

هم الـذين يقــول النـاس انهمـــو
ان صادفوا ملهيـا عن جوعهم قنعوا

لا أكذب الله ، كم فينـا ذوو شـمم
اذا أريدت بهـم مكـروهة فزعوا (٤)

لا أكذب الله ، قـد قاموا وقـد جهـــروا
بالحق ، لو أن صـوت الحـق يستمع

---

(١) الضرع = نبات كريه الطعم والرائحة ٠

(٢) العل الشرب المتقطع وجمعه علات والجرع ما يتجرعه الانسان٠

(٣) الواكف المتساقط والهمع السائل ٠

(٤) فزعوا = ثاروا ٠

٣٢

ولقد يقال ان شعر « طه حسين » الاجتماعى والذاتى لم يصعد قط الى المستوى الذى يرضيه كفنان يعرف قدر نفسه ، وكناقد من أكبر نقاد عصره ، وأنفذهم الى أغوار منقوديه ، وقد كان من رأيه فى الأدب المنشور قوله :

« .. ان ما يقدم الى المطبعة من الآثار المكتوبة، أشبه شىء بما يقدمه الوثنيون القدماء الى آلهتهم من الضحية والقربان ، وبما يتقدم به المؤمنون الآن الى الههم من الصلاة والدعاء ، فمن الحق أن تصطفى الضحية وأن يتخير القربان ، وأن تكون الصلاة قطعة من النفس

وأن يكون الدعاء صورة للقلب والعقل جميعا .. » (١)
.. وأنه كان لا يرى فيما كتب من شعر ، ضحية تصطفى
أو قربانا يختار : أو على حد قول « طه حسين » نفسه
فى لحظة من لحظات ضـيقة به ؛ أو سـخطه عليه ؛
« .. انه لم يقل شعرا قط . وانما قال سخفا كثيرا » (٢)

لكنى أرى غير ذلك ، فقد نشر « طه حسين » شعره
فى صحف ذلك العهد ، مشاركا به فيما يشغل المجتمع
من أحداث حينا ، ومتحدثا عما يشغل نفسه حينا آخر،
مسجلا بذلك صورا منظومة لنفسه وأحاسيسها ، فى
شكل فنى متعارف عليه : تقوم العاطفة فيه مقـام
الأساس الأول لبنائه ومن ثم أصبحت هذه الصـور
ـ بحكم نشره لها ـ حقا مطلقا للتاريخ فى الاستفادة منه
وبذلك يمكن اعتبـار ما تبقى من شـعره حقـلا
لدارسى شخصيته ، قد يرون فيه من مادة بحثهم : ما
لا يرون فى سواه من ضروب القول الأخرى ..

---

(١) الفصلة الاولى من قصة (أديب) لطه حسين .
(٢) ص ٤١ من مذكرات طه حسين نشر الآداب بيروت .

... وقد كان « طه حسين » يقول شعره وهو مطمئن الى أنه شعر جيد . وقد بينا ذلك فيما سلف..

واننا نوافق على جودته الى حد ما وذلك اذا قسناه بمقاييس العصر الذى قيل فيه . والسن التى قاله فيها، وهى مقاييس يجب أن نحترمها ؛ ونحن ننظر الى ما نتج فى ظلالها من أدب وفن ، فلا نبخسهما حقهما من التقدير ولا يجب أن ننظر اليهما بذوقنا نحن الآن بعد أن أمضينا فى طريق التطور ثلثى قرن أو تزيد ، وهى مسافة زمنية يمكن أن تعد بألف سنة مما كنا نعد من قبل ، اذا نحن نظرنا الى خطوات الثقافة الواسعة فى زمننا هذا ... والى التعاون العالمى فى سبيل تطوير هذه الثقافة والوصول بها الى الكمال ..

٣٣

وعلى ضوء من هذه المقدمة التى أسلفناها يمكن أن نقرأ معا هذه المختارات من قصيدة « طه حسين » التى نشرها بعنوان على النيل وهى قصيدة يبلغ عدد أبياتها ٦٠ بيتا

وقفة فى الصباح أو فى الأصيل ... يتجلى فيهما جمال النيل
تزع البائس الحزين عن البؤس ... وتنسى المحب عذل العذول
رب ليل قد بات فيه لى الهم ... نزيلا ، أبغض به من نزيل
شرد النوم عن جفونى وأذكى ... بين جنبى نار وجد جزيل
قمت عن مضجعي ولا من سمير ... فيسرى عنى ولا من خليل
ساعيا والأسى ينهنه من همى ... ويغرى عزيمتى بالقفول

سرت والقلب بين داجية اليـاس ، وضـوء من الرجـاء قليـل
واذا ما تنسم المرء باس ورجاء لم يـدر قصـد السبيل
ليل انسجح فقد ملكت وأصبح قد سئمنا من طـولك المرذول
ظلم الانجليز مصر فهل جار يتهم أنت فى المقـام الطويـل ؟
اجمـل نفس ان فى النيـل المحزون سلوى ومشتفى الغليل
فاذا النيل كاسف يلحظ الليل على كرهـه بعينى ملـول
هادئ السير خافت الصوت لا تسمع منه الا أنين العليـل
ما عنـائى وما عناؤك يـا نيل لقوم رضوا حياة الذليل
قنعوا بالصغار واستعذبوا الضيم فمالوا اليه كل مميـل
« كاتب » نائم ، و « ذو الشعر » لاه و « أديب » سبته كأس الشمول
اسلموا دارهم وعقوك يا نيل فما ان لهم سـوى التنكيـل
رفض فاغرقهمو فانت حليـم غض فاهلكهمو وغـير بخيـل
ويك يا نيل لو تعلم منا الناس ٠٠ لم تخش عاديات الجهول
ويك ارشـدهمو الا من سمـ يعرويك وانصحهمو ولا من قبول
خبرونى وما اخال لديكم من جواب الا حديث الفضـول
ما ثنـاكم عن المعالى وانتـم أهل عز وأهل مجـد أثيـل ؟
يرتقى غيركم سراعا الى المجـد وأنتم عن العـلا فى ذهـول
او لستم بنى الألى ملكوا المجد بحـد المهنـد المسلول ؟
« نحن منهم ٠٠ لو لم يحل بيننا الدهر وبين المرجو والمأمول » (١)
ذاك عـذر الخمول فى كل شئ لا شـفى الله نفس هذا الخمول
« يتـجنى على الزمـان وماذا يصنع الدهر بالجبان الكسول » (٢)
ايه يا نيل قد صدقت فللتـ ضليل فى مصر أيمـا تمثيـل
واذا ما نصحت للخائن الخـ ب ٠٠ تـولاك بالمقـال الثقيـل
امصيبا اذا انتحلت محـالا ! ؟ ومحيـلا ان فهت بالمعقـول ؟ !

---

(١) هذا البيت على لسـان الناس يردون به على النيل

(٢) وهذا جواب من النيل

ضحك النيل حين أشرقت الشمـس وأهدى لها سلام الخليل
وكستها رداءهـا الارجـوا نى فنالته هـزة المشمول
كـدت لولا التقى أغبـر وجهى بركـوع فسـجدة للنيل
شـغل النيل بالحبيبة عن ذى حاجـة ليس عنـه بالمشـغول
ثم نـادى تحيـة وسـلاما سـنتم الحـديث بعد الأصـيل

واقترن الصديقان ليلتقيا فى مناجاة أخرى سنرى فيها كيف يكون الحديث ٠

٣٤

ونحن نعلم أن « طه حسين » قد اتجه تفكيره أول ما اتجه ، اتجاها دينيا ، موروثا فى صباه ، سلفيا فى الضحى من شبابه فلقد أمضى طفولته : فى بيئة متدينة يغلب على القائمين بأمرها ، لون من ألوان التصوف بمعناه الشائع فى أغلب القرى يومئذ ، ورأينا كذلك أن بعض أفرادها اتجه الى الأزهر الشريف ليتلقى العلم فى أروقته ، ورأينا « طه حسين » نفسه ، وهو ينهج هذا النهج ، فيذهب الى الأزهر صبيا ، ويظل فيه

الى صدر شبابه، يدرس به ماشاء الله له أن يدرس من علومه ، ويختلف الى شيوخه يتلقى عنهم ما قدر له أن يتلقاه ، ويستمع الى أحرار الفكر منهم والمتزمتين على سواء ، بعقلية تعى ما تسمع ، وتفكر فيه ، وتفاضل بين ما اختلفوا فى وجه صوابه •

ورأيناه كذلك وقد عاد من القاهرة الى القرية فى احدى اجازاته ، وقد تأثر بما ترك الامام « محمد عبده » وتلاميذه من أثر فى التفكير الدينى عند كثير من الناس •• فهو ينكر على أبيه قراءته فى دلائل الخيرات ويبين لمن حوله أن كثيرا مما ورد فى هذا الكتاب الشائع حرام يضر ولا ينفع ، وهو يعلن للملأ أنه «•• لا ينبغى للانسان أن يتوسل بالانبياء ، ولا بالأولياء وما ينبغى أن يكون بين الله وبين الناس واسطة وانما هذا لون من الوثنية •• » (١) حتى اشتغلت القرية غيظا منه وسخطا عليه •• ومع ذلك فهو مصر على مايعلم أنه الحق الذى ليس بعده الا الباطل ••

---

(١) الأيام جـ ٢ فصلة ١٦

أكتب هذه الفصلة تقديما لمختارات سأختارها من القصيدة التالية والتى جعل عنوانها هى الأخرى « على النيل » وقد دعانى الى كتابتها اعتقادى أن كثيرا من شبابنا الآن سيعجبون من دعوة الشيخ « طه حسين » فى هذه القصيدة ليس الى التمسك بالكتاب والسنة فى العبادات فحسب وانما من دعوته للحكومة القائمة وقتئذ الى الحكم بما فى كتاب الله وسنة رسوله وسنة الخلفاء الراشدين من بعده فى القوانين العامة من جنائية ومدنية ، ولعلهم يكونون أكثر تعجبا عندما يستمعون الى تنديده بأولئك الذين يدعون الى الحكم بالقوانين المستوردة ويخشون على المجتمع من تنفيذ الحكم الدينى المطلق ، بل ويسخر حتى من التعذير الذى جعل فيه بعض فقهاء المسلمين سعة للقاضى بحيث يمكنه أن يحكم بالحبس والغرامة فيما لا يجد له نصا مقدسا محدودا يمكن أن يعاقب بمقتضاه فى الجريمة التى أمامه ، وعلى ضوء من هذا كله نستعرض معا مختارات من هذه القصيدة التى نشرها فى مصر الفتاة يوم ٢٦ — ٨ — ١٩٠٩ .

٣٥

وفى مطلع هذه القصيدة التى يبلغ عدد أبياتها ٦٤ بيتا يخاطب « طه حسين » النيل مستكملا الحوار الذى دار بينهما فى القصيدة السابقة :

عم مساء فقد أتاك السمير   لا يروعنك الظلام المغير
لا يروعنك الفراق فللأ   فلاك يا نيل دورة ستدور
تولج الليل فى النهار ويأتى   من ذكاء الى الظلام نذير
قرعينا وأنت أنعم بالا   من حبيب صفاؤه تكدير
ان قضى الله بانفرادك حينا   فهو الدهر مبعد مهجور
كيف أمنتها الوشاة وهذا   الليل يا نيل ثائر موتور
نيل ما هذه الكآبة والحز   ن ألم يعدك الأسى الموفور
قال ما راعنى الفراق ولكن   قلت انى بما اعتراك خبير
غادة أسفرت فغابت ذكاء   وتولتك لوعة وزفير
أمها من بنيك أخدان لهو   كلهم مدنف الفؤاد أسير

لم تزل بينهــا وبينهمــو الأز — هار تســعى حتى تقفست أمور
كان ما كان والفضــيلة تدعــو — أين منى المعين أين النصــير ؟
لم يجبها ســواى لكن ســيفى — دون هذا اللســان عنهم قصــير
ظلم القــانون بالأسر فى النــا — س واغواهمــو ضــلال وزور
زعمــوا أن شرعهــم يكفــل — الخير • ولله ســنة قد تجــور
وهــم ســاقه الغــرور اليــهم — ومن النــاس جاهــل مغــرور
نــدع الكــافرين بالله لــكن — هل لدى المسلمين منا عذير ؟
أيها النــاس أين علمــكو القا — هر من عــالم عــداه القصــور
عــالم الغيب والشــهادة لا — يعزب عنه قبل الصــغير كبير •
قــد أبحتــم لنا الخنــا وحظرتم — كيف هذا المسوغ المحظور (١) ؟
انفــذوا حكمــه عــلى كل جان — لا ينلكــم من دون ذاك فتــور
ارجمــوا واجلــدوا كمــا أمر — الله يجانبكمــو الخنــا والفجــور
ان من يهدر الفضــيلة يهــدر — ليس كفــوا لذنبــه التعــذير
طــرب الفيــل ثم قــال لدمر — الله قــد كــاد يزدهيني السرور
أمحب للدين من أهل مصر ؟ ! — أنت والله بالنجــاة جــدير
نســيت مصر دينهــا فعداهــا — كــل خــير وجللتهــا الشرور
عهــدنا بالوفاء أيام كان الــد — ين غضــا تلين منه الصــدور
عهــدنا بالابــاء أيــام كان — المــوت حلــوا يزار ليس يزور
عهــدنا بالســلام أيام لا يعتــ — ســف النــاس ما لك أو أمــير
ذاك عهــد قــد انقضى وتــولى — ذهبت أعصر وجــاءت عصــور
كثــر المدعــون فــى مصر حتى — كــاد يقضى على البــلاد الغــرور
حســبكم يا بنى الكنــانة عجبــا — كســل مخجــل وفخــر كثــير
ليــكن قولكــم أقل من الفعل — فلن يبــلغ العــلاء فخــور
اجمعــوا ان اردتمــو الســير — للسؤدد والمجد أمركم ثم ســيروا

---

(١) كانت الدولة وقتئذ تبيح البغاء للتى معهــا تصريح به وتحرمه على غيرها

سكت النيل ثم قال كلاما   لم تسعه من القريض بحور
لم يطل ليلنا وليل الأماني   حين يلهو الفتى يهون قصير
لا على العاشقين أن يخل   الدهر فهذا نصيبنا المقدور

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٣٦

وأرادت « مصر » سنة ١٩٠٦ أن تقيـم احتفالا لتكريم زعيمها الشاب « مصطفى كامل » ، بمناسبةعودته من « أوروبا » وتألفت لجنة لهذا الغرض بأمانة «محمد فريد » ..

وكانت فكرة اقامة الجـامعة المصرية قد شغلت أذهان بعض مفكرى الأمة وقتئذ ، وكان أن أرسـل مصطفى كامل ، وهو فى باريس خطابا الى اللجنـة ،

أشار فيه الى مشروع انشاء الجامعة المصرية واختتمه بهذه العبارات ..

« هذه هى الوحيدة التى يليق بالوطنيين اهداؤها لمصر والمصريين ، فلتنس الأحزاب انقساماتها ، ولينس الصحفيون خصوماتهم ، ولتلق الأحقاد فى هوة لا يسمع فيها لغو ولا دوى .. ولتجتمع الأمة لاتمام هذا العمل الضـخم وتحقيق ذلك المشروع الذى كله خير ونفع عميم .

وليذكر الذاكرون أن من بين الفقراء الذين سد الاحتلال فى وجوههم أبواب العلم والنور ، رءوسا لو تحلت بالعرفان ، لكانت فخار مصر الى أبد الزمان ، ليذكر ذوو الاحساس والوجدان أن فى مصر كنـوزا لم تستخرج الى الآن وأنها لو أخرجت الى الناس لملأت الأرض نورا .. » (١)

وكانت «انجلترا» تريد لهذا الشعب ثقافة محدودة

---

(١) د. خليل صابات مادة الجامعة المصرية المجلد الرابع دائرة معارف الشعب

أو تكاد ، تريد له أن يعيش فى ظل الكتاتيب ، أو ما يساوى الكتاتيب ، تحت أى اسم آخر فاذا كان لابد من تعليم عال ، فليكن لاخراج موظفين فحسب . ولذلك حاربت مشروع انشاء الجامعة المصرية ، الذى سيقوم فى أول أمره على تبرعات المواطنين ، وكان من وسائلها فى هذه المحاربة الدعوة الى مشروع منافس هو اقامة الكتاتيب . وبذلك تتمزق الجهود لكن ايمان المواطنين بالعلم أدى الى نجاح المشروع الأصلى ، وبدأت تبرعات المواطنين لمشروع الجامعة تأخذ طريقها فى جدية واهتمام ونذكر هنا بعض نماذج من تبرعات المتبرعين له وقتئذ للذكرى وعلى سبيل المثال :

مصطفى كامل الغمراوى ٥٠٠ ج م + ٦ أفدنة
الأمير يوسف كمال ١٥٠ فدانا
حسن جمجوم ١٠٠٠ جنيه
حسين عيد بك ٥٠٠ جنيه
أحمد حيدر باشا ٥٠٠ جنيه
وزارة الأوقاف ٥٠٠٠ جنيه
حسن زايد بك ٥٠ فدانا

ونذكر على سبيل المثال أيضا أن « سعد زغلول » تبرع بمائة جنيه ومثله كثيرون وأن « عوض عريان » تبرع بثلاثة وسبعين فدانا بعد وفاته •• وأن « محمد عارف » أوقف خمسين فدانا على الجـامعة على ألا يستخدم ريعها الا بعد انقطاع ذريته ••

وأقيمت حفلة لصالح تمويل المشروع على أحـد مسارح القاهرة الكبرى ألقى فيهـا « حافظ ابراهيم » قصيدته التى منها :

ولا حيـاة لكم الا بجـامعة
تكون أما لطلاب العـلا وأبا

وتربعت الأميرة « فاطمة اسماعيل » على عـرش قائمة المتبرعين لهذا المشروع الجليل ، اذ تبرعت بستة أفدنة من أراضى البناء بجوار قصرها بالدقى لاقـامة مبنى الجامعة عليها وأوقفت ستمائة فدان من أجـود ما تملك من الأراضى الزراعية للصرف من ريعهـا على الجامعة الوليدة ، كما قدمت من جواهرها ما يسـاوى ثمانية عشر ألفا من جنيهات ذلك العهد اسهاما منها فى

عملية البناء ، وأضافت جميع مصاريف حفلات الافتتاح الى حسابها الخاص (١)

وأثار صنيع « الأميرة » شاعرية عدد من الشعراء فاستمعنا الى « أحمد شوقى » وهو يقول من قصيدة :

وبارك الله فى أساس جامعة
لولا الأميرة لم تصبح بأساس
كانت على الأمس ادراسا معالمها
واليوم تبدو قياما غير أدراس
كسوتها وهى أهل للذى لبست
كما كسا جنبات الكعبة الكاسى
فما كصنعك صنع فى محاسنه
ولا لفضلك فى الأجيال من ناس (٢)

ونحن نحس فى أبيات « شوقى » رصانة الرجل الراسى الذى تمرس بالجامعة من قبل ، فى حين نكاد نلمس فى أبيات « طه حسين » ــ التى سنوردها بعد

---

(١) المرجع السابق + مذكراتى فى نصف قرن لأحمد شفيق باشا جـ ٢ ص ٣١٠

(٢) الشوقيات جـ ٢

قليل ـ لهفة المحروم الذى انشقت الأرض أمامه ، عن أمنية كان يتمناها بعد أن ضاق بالأزهر أو ضاق الأزهر به : ونذكر ـ بهذه المناسبة ـ أن « طه حسين » كان قد بدأ فى هذه الفترة يتعلم اللغة الفرنسية فى مدرسة أهلية مسائية كان قد أنشأها الشيخ « جاويش » وقد عمل « طه » مدرسا بهذه المدرسة لبعض المواد الأخرى بغير أجر : وكان تعلمه الفرنسية استعدادا لدخوله الجامعة .

نعود بعد ذلك لنستمع الى أبياته وهو يخاطب « الأميرة » فيما يشبه الصلاة :

عشت للشرق فان الشرق محتاج اليك
رفع الله منار العلم فيه .. بيديك
وهب الجامعة السعد فنالت نعمتيك
فهى فى أمن من الدهر بما فازت لديك
يا مثال الجود والبر هنا فى بلديك
انما الحمد وحسن الذكر موقوف عليك (١)

---

(١) الجريدة ٩ ـ ١١ ـ ١٩١٣

وقد روى لى الدكتـــور « مصطفى العبادى » الأستاذ بجامعة الاسـكندرية بيتين بقيا فى ذاكرته من قصيدة أخرى « لطه حسين » يخاطب بهما الأميرة هما :

وجامعة « فينا » (١) نسنت بقـــاءها
ولــولاك لم يعيى الزمان دثـــورها
سيحفظهـا التـاريخ فى حسـناته
صـحيفة بر مشرقات ســطورها

---

(٢) ما بين المعقوفتين كلمة منسية وضعنا بدلا منها

٣٧

وبعـــد ..

فهذه صور مستمدة من حياة « طه حسين » عندما كان «فى الضحى من شبابه» وقد فارق القرية الصغيرة وهبط القاهرة الكبرى ..

لقد كانت فترة ثرية وخصبة ولكن ظلت فى بعض جوانبها غامضـــة .

وكان الشـــعر ــ بلا شك ــ مكونا من مكوناتها والشعر صورة للنفس ، فيما يقول «طه حسين» نفسه

ولذلك لجأنا الى شعر « طه حسـين » نستلهمه ونستفتيه اذا غمض علينا الدليل ..

فهل تكشفت لنا بعض أعماق الرجل العظيم ؟
الحـق ...

انى أردت بهذا الكتاب المتواضع أن أعطى بعض الضوء على جانب من جوانب سيرته ، وحسبى هـذا ذلك لأنى أومن بالحكمة التى تقـول :

لا تستح من اعطاء القليل فان الحرمان أقل منـه
وصدق الله سبحانه وتعالى اذ يقول :

« فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس ، فيمكث فى الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال »

وأما أنت يا صديقى القارىء

فانى أشكر لك أن وصلت معى الى نهاية هـذا البحث ولعلك خرجت منه بشىء يمكن أن يعوض لك هذا الجهد الذى بذلته ..

والحمد لله أولا .. وأخيرا

الاسكندرية　　　عبد العليم القبـانى

على هامش الكتاب

وبعد .. مرة أخرى ..

فانى أستأذنك أيها القـارىء الكريم ، وقـد بلغ الكتاب أجاه ، فى وثبة زمنية طويلة نقطع فيها المدى من سنة ١٩١٣ حتى سنة ١٩٥٠ لنلتقى معـا بذلك الفتى الضرير وقد أصبح وزيرا للمعارف ، وهو يحمل شعاره

المتوهج باتاحة العلم للجميع وجعله بالنسبة للمواطنين كالماء والهواء .

فقد حدثت لى معه قصة أحب أن أختتم بها هذا الكتاب وان انحرفت بها عن الموضوع الذى قدرته له ..

ذلك أنى كنت تقدمت ـ فى تلك السنة الى روضة أطفال « الفوزية » بكرموز بالاسكندرية بطلب قبول ولدى « عادل » بها ولكن الروضة رفضت قبوله لاستيفاء العدد المقرر للروضة ..

وكان أن بعثت الى أستاذنا « الدكتور طه حسين باشا » بقصيدة أسميتها « الطريد » وهى شديدة اللهجة الى حد القسوة ، وقد قلت له فيها :

عجبا تنكر الرياض وليدى ؟
وهو سر الجنان فى تغريدى؟
تغلق الباب دونه وجناها
مستباح لكل طير شريد ؟
ولدى « عادل » يذاد عن الرو
ض ، ويلقى من خلف سور حديدى ؟

نم أقــــل أنقــــذوه ، ان وليدا
لبئيس ، يا بؤســــه من وليــد

لم أقــــل أنقــذوه ان شـــقاء
لازم الجـــــد لازم للحفيــــــد

هــــكذا يورث الشـــقاء بمصر
مثلمـــا يورث الغنى للســــعيد

لم أقــل أنقــــذوه فهــو سجين
من ســـجين آباؤه فى القيــود

واذا كـــانت الأمـــاسى سـودا
أقبــل الصــبح من سمات العبيد

يا وزير التعــليم فى مصر عفــوا
انهـــا نفثــة الفــؤاد العميــد

شـــاعر الحى أنكرته الليـــالى ؟
أم ترى ســـاء حظــه من جــديد ؟

قهقهت حـــوله المنى ، ثم غابت
خلف ستر من ســخريات الجدود

كان ما يرتجيــه تعليم طفــل
ثم ذاب الرجــاء ذوب الجليــد

يا وزير التعليم فى مصر عفــوا
أنت حطمتنى بحــلو الوعــود

تقتــل النفس بالرجــاء اذا لم
يتحقــق ، والزهــر كالفحم يــودى

غير أنى وقــد شــقيت بقــومى
وتلفعت منهمــو بالجمــود

واجتــوانى الزمان حتى كــأنى
نعمــة تجتلى بعينى حســود

لم أزل صــادق الولاء وفيــا
لبــلادى وان تقصــف عــودى

واذا كــان للرجــاء بقــايا
فهى فى طبعك الــكريم الفريد

أنت ان شــئت فــالعصى مطيــع
والبعيــد القصى غــير بعيــد

واذا شـــئت فالمفـــازة روض
يجتنى ظـله الشـهى وليـــدى

وكان أن بعث ــ رحمه الله ــ الى ناظرة الروضة بنفس قصيدتى وعليها تأشيرة مؤداها

« يقبل الطفل المذكور على أية صورة كانت »

وكان أن استدعتنى السيدة الناظرة ودخل ابنى مع الداخلين ٠

ولقد تذكرت تأشيرة الدكتور « طه حسين » هذه عندما تقدمت الى أحد وزراء التربية والتعليم اللاحقين بالتماس نقل ابنتى « سهير » ــ وكانت وقتئذ طفلة لم تتجاوز السابعة ــ من مدرسة «كرموز» الى «الحضرة» عقب انتقالى بالمسكن اليها ، وبين المدرستين حـــوالى سبعة كيلو مترات ولقد ذوبت نفسى خشوعا وخضـــوعا فى كتابة ملتمسى هذا وبعثت به الى السيد الوزير ، فكان أن عاد لى الملتمس وعليه التأشيرة التالية « عائد لاستيفاء

الدمغة » واستوفيته ، وبعثت به الى السيد الوزير مرة أخرى ولكن لم يحدث أى شيء يشير الى قبول الملتمس الحائر ، وبقى الأمر معلقا حتى قام أحد المفتشين بحله..

رحم الله « طه حسين » فقد كان — فى هـــذا الحادث الذى رويته — انسانا قبل أن يكون وزيرا

واذا كنت قد أفردت هذا الحادث بالاشارة فذلك لأنه لصيق بى لا يمارينى فيه أحد ، ولأن الجزئية تنبىء عن الكلية أحيانا .

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٥٣٧٨/١٩٧٦

ISBN ٩٧٧ ٢٠١ ١٩٣ -



● هذا الكتاب

يعرض لأحد جوانب الابداع الأدبى عند « طه حسين » ، وهو الجانب الشعرى فى انتاجه الذى استغرق الضحى من شبابه . ويحاول الكتاب ان يوضح الأحداث التى احاطت بهذا الشعر لكى يعايشه القارىء ويحس معانيه باحساس معاصريه ، كما يقدم طائفة من طرائف صاحبه وغرائب آرائه فى هذه الفترة مما يعيد لنا صورا شائقة من حياة كاتبنا الكبير .

العدد القادم

مغامرات العقل

تأليف : د . محمد صابر

١٠ قروش